القاضي عياض
دراسة في النشأة والتكوين العلمي

د / حسين سيد عبد الله مراد(*)

مقدمة:
تتناول هذه الدراسة علمًاً شهيرًاً من أعلام المغرب بوجه خاص، والعالم الإسلامي بوجه عام، وهو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى البحصي السبتي - رحمه الله - اعتراضاًً لما له من قدر مكين، ومن كان رفيع، وسط أعلام الحضارة الإسلامية في المغرب الإسلامي حتى شاع على ألسنة الجامعات المغربية القول بأنه: "لولا عياض ما ذكر المغرب".

وتهم هذه الدراسة بالنشأة والتكوين العلمي للقاضي عياض أي دراسة المرحلة الأولى من حياته، وذلك بدراسة مجتمع سبتي الذي أنتجه بأوضاعه الجغرافية والاقتصادية والسياسية، بالإضافة إلى موارد ثقافته التي أسهمت في تفرده ونبوغه. وتبدأ هذه المرحلة من حياته منذ أن أبصر النور في مستنقع رأسه سبتي، في منتصف شعبان عام 476 هـ / 1083 م، وتنهي بعهده من رحلته العلمية إلى الأندلس رائدًاً من رواد الفكر والثقافة عام 508 هـ / 1114 م، أما المرحلة الثانية والتي تبدأ بعهده من الأندلس وتوليه منصب القضاء، وتهجمه للتأليف والمشاركة في الحياة العامة وتنهي بهوفاته عام 544 هـ / 1149 م، فقد تناولتها دراسات عديدة. ففي ندوة الإمام مالك، دور القاضي عياض(**)، جاءت عناوين الأبحاث كالأتي: "عياض المحدث".

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ - معهد البحث والدراسات الإسلامية.
(**) عقدت هذه الندوة برعاية وزارة الأوقاف المغربية في مدينة مراكش في مارس 1981.
في حياة عياض : "القاضي عياض الشاعر" » الجانب الأدبي في "القاضي عياض مفسراً" » "القاضي عياض المصلح الاجتماعي" » "موقف القاضي عياض من الإمام الغزالي" » "موقف القاضي عياض من المرابطين والموحدين" وغير ذلك من الدراسات.

إن هذا التنوع والشخصية العلمية للقاضي عياض والسبيق الذي حازه في ميدان الفكر والثقافة، دفعني أولًا للبحث عن نشأته لارتباطها الوثيق بما وصل إليه من مكانة علمية سامية أنشاد بها المؤرخون، ودفعني ثانًياً إلى البحث عن العوامل التي أسهمت في تكوينه العلمي حتى أصبح الأفضل بين معاصره.

ولكن العالم - آخر الأمر - هو ابن بيئته، وللهذا فقد إنشغلت هذه الورقة البحثية بدراسة المجتمع الذي نشأ فيه القاضي عياض، بإعتباره المصدّر الأول عن تكوينه، سواء من حيث الأسرة والعائلة، أو من حيث المجتمع المحلي - العلمي والديني - الذي تعرّض فيه، أو من حيث البيئات السياسية والاقتصادية كذلك. وقد اجتهدت فيربط بين ذلك كله واتجاهات القاضي عياض البحثية والعلمية، وذلك في محاولة لتقديم منطور تاريخي دقيق لهذه الشخصية الهامة.

نسب القاضي عياض:

حين ذكر القاضي عياض المكنى بأبي الفضل نسبه لأبنه محمد قال إنه عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض الباحثي السبتي. كما قال إنه لا يدري هل محمد والد عياض أم بينهما رجل فهُو جده. (11) وقد ذكر القاضي عياض هذا النسب

(1) محمد بن عياض : التعريف بالقاضي عياض، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الثانية 1982 ، ص 2.
أيضاً للشيخ أبي القاسم بن الملجوم حين أجتاح مدينة فاس وهو في طريقه إلى مدينة مراكش عام 543 هـ / 1148 م، حين سأله ابن الملجوم عن نسبه (1).
أما ابن الأبار المتوفي عام 658 هـ / 1260 م فقد أورد نسبه لكن نراه قد أسقط عمرو فيما بين عياض وموسى وذكر عمر، كما أسطر أيضاً عبد الله فيما بين محمد وموسى (2). وحين ذكر ابن خلكان المتوفي عام 1281 هـ / 1862 م نسبه يذكر عمر بدون من عمرو، كما لم يذكر عبد الله فيما بين محمد وموسى (3).

وبناء على ما ذكره عياض لابنه محمد فقد استقر أجداده قديماً بالأندلس في Baza مدينة بسطة، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، كما كان لهم استقرار في القيروان، سواء أكان ذلك قبل استقرارهم في الأندلس أم بعد ذلك (4). وإن كان الباحث يرجح أن أجداد القاضي عياض بدأ استقرارهم أولاً في القيروان مع بدء الاستقرار العربي في تلك المدينة عقب تأسيسها، أو مع استمرار الدفق العربي إليها واستيطان مع استمرار حملات استكشاف فتح بلاد المغرب، وفي خلال عصر الولاة. فمدينة القيروان استوطنتها عائلات عربية تنتمى إلى سائر بطول العرب من مصر وربطة وقحطان (5). ومن القبائل القحطانية التي

(1) المغربي: أزهار الرضا في أخبار القاضي عياض، الجزء الأول، تحقيق إبراهيم الأباري، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الأولى 1989 ص 232، 24.
(2) المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، تحقيق إبراهيم الأباري، الجزء الأول، تحقيق مصطفى السفاح، قلعة، 1978.
(3) وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عياض، دار صادر بنوت، 1978، جزء، ص 483.
(4) بسطة مدينة بالأندلس بالقرب من وادي الأش، وهي من كورنيش ومنشورة بالبيبة والباستثناء، وذلك فقد كانت حصنية المراقبة ذات الصبيز، أظهراً: الحميدي: الروض الممتاز في غير الأقطار. تحقيق إحسان عياض، مؤسسة ناصر الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية 1980، ص 113.
(5) ابن عياض: مصدر سابق، ص 2.
(6) البمربري: البلدان، الجغرافيا، الطبعة الثالثة 1957، حسن مراد، العرب في مدينة القيروان روبروهم الفيكي حتى نهاية عصر الولاة، بحث في مجلة الدراسات الأفريقية رقم 43، عام 1995، ص 30، وما بعده.
استوطنتها قبالة يحبص التي ينتسب إليها القاضي عياش، فقد كانت لهم خطة في تلك المدينة تسمى حارة يحبص (1). وبعد أن مكثوا فترة من الزمن سواء كانت قصيرة أو طويلة انتقل أجداده إلى الأندلس وسكنوا مدينة بسطة، ومنها انتقلوا إلى مدينة فاس، وأخيرا استقرت في مدينة سبطة.

بدأ استقرار أجداد القاضي عياش في سبطة في عهد جد أبيه عمرون (2) بعد دخول الفاطميين بلاد المغرب، ويرجع السبب في ذلك أنه كان له ولابائه نباهة شهرة ب مدينة فاس، كما كانوا من أعيان تلك المدينة. ولذلك حين أخذ المتصور بن أبي عامر رهنا من أعيان فاس، أخذ منهم أخرهم عمرون: عيسى والقاسم، فخرج عمرون إلى مدينة سبطة ليكون قريبا من أخبارهم ب مدينة قرطبة واستحسن سكناً هذه المدينة (3).

وإذا كان عمرون هذا هو أول من استقر من أجداد عياض في سبطة فإن المصادر المتاحة لا تعين في معرفة بدء هذا الاستقرار، ولذلك فإنا نعتمد على بعض المعطيات التي أوردها ابن القاضي عياض المتوفر عام 575 هـ / 1179 م لتحديد التاريخ التقريب لبداية الاستقرار. وأول هذه المعطيات أنه يقول إن الاستقرار بدأ بعد دخول الفاطميين بلاد المغرب، أي بعد عام 349 هـ / 960 م.

ففي هذا العام وصلت جيشه القائد الفاطمي جوهر الصقلي مدينة فاس وقتل خلقاً كبيراً (4). وثاني هذه المعطيات أن ابن القاضي عياض يقول إن عمرون خرج من فاس بعد أن أخذ المتصور بن أبي عامر رهناً من أعيان فاس، كان من بينهما أخرهم عمرون، فخرج إلى سبطة ليكون بالقرب من أخوته في قرطبة وتذكر المصادر أن حملة ابن أبي عامر التي وصلت مدينة فاس كانت في عام 387 هـ.

---

(1) عياض: تراجع أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تحقيق محمد الطالبي، نشر الجامعة التونسية، تونس 1988، ص 71.
(2) عمرون بن موسى بن عياض كان رجلاً خيراً صالحاً من أهل القرآن، غزا مع المتصور بن أبي عامر غزوات كلية، ابن عياض، مصدر سابق، ص 3، ق 32.
(3) ابن عياض: مصدر سابق، ص 3، ق 32.
(4) ابن أبي زرع: الأنسى المطلب بروض القرطاس في أخبار ملل المغرب وتاريخ مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرياض، الطبعة الثانية 1999، ص 124.
997 م بقيادة مولا به، للقضاء على تمرد زرية بن عتبة المغراوي على المنصور. ونتيجة لعجز واضح في تنفيذ الأهداف التي خرج من أجلها، أرسل المنصور جيشاً آخر بقيادة ابنه عبد الملك في عام 388 هـ / 998 م، ونجح هذا الجيش في دخول مدينة فاس، واستمر عبد الملك مقيماً فيها ستة أشهر حتى أواخر العام المذكور، ولم يثبت أن خرج عادياً إلى قرطبة ومعه رهائن من أعيان فاس ليضمن ولاء هذه المدينة ١). 

يمكن التوفيق بين المعطى الأول والثاني بأن عمرو خرج من فاس بعد حملة جوهير الصقلي التي كانت عام 349 هـ / 960 م، لكن لم يخرج مع وصول جوهير الصقلي إلى هذه المدينة، بل ظل مقيماً فيها حتى أخذ ابن أبي عامر أخوته رهناً في عام 388 هـ / 998 م، فغادرها عمرو في هذا العام إلى مدينة سبتة ليكون قريباً من قرطبة حيث يقيم أخوه ٢).

استمر عمرو - بعد أن استقر في سبتة - أمواله في أعمال البر، فأشتري أرضًا تعرف باسم المنارة، وبنى في بعضها مسجداً، وبنى بعضها ديراً، جبساً على المسجد، وحبس بابي الأرض للذين لا يريدون مراقبة المسجد إلى أن توفي سنة 397 هـ / 1006 م، وكان قد أعين قبل وفاته برسيم ابنه عياض، ثم ولد له عياض ابنه موسى ثم ولد له موسى ابنه عياض، فانصرف شعبان عام 477 هـ / 1080 م ٣)، ولذلك يعد عياض بن موسى عبد الأصل، سبتة الدار وال바يلات، استقر أجاددها في القريوان والأندلس قبل استقرارهم النهائي في مدينة سبتة ٤).

أما عن مكانة العلمية لتلك الأسرة، فإن المصدر المتاحة لا تعين في الحديث عن هذا الأمر، فلنا نعرف شيئاً عن موسى والده عياض، ولا جده عياض،

١) ابن عنادي: البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان مونتفي بروفنسل، الدار العربية لللكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣، ص ٢٥، ص ١٣٤، ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص ٢٤٠، ٢٤٢، ص ٤٨١. ٢) ابن عياض: مصدر سابق، ص ٣، المقرئ: أزهر الأزهري، هـ ١، ص ٢٨، ٢٩، ٢٨٢، ٢٨٨، ٢٨٢.

١) ابن عنادي: البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان مونتفي بروفنسل، الدار العربية لللكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣، ص ٢٥، ص ١٣٤، ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص ٢٤٠، ٢٤٢، ص ٤٨١.
وجد أبيه عمرون ، أول من استقر في سبنة . لكن نرجح أن هذه الأسرة كانت ذات شأن في مجال العلم ، يشهد على ذلك المكانة العلمية لصاحب هذه الدراسة . فالوراثة تلعب دوراً هاماً في توجيه السلوكي الذي لا يمكن أن يتجه مطلقًا من كل ماله إرباط وثيق بالأسرة . فسلوك القاضي عياض نحو العلم والثقافة ، ورغبته الملحمة فيهما ورحلته إلى الأندلس من أجلهما ، واتصاله علماء المشرق الإسلامي سلوك مكتسب من الأسرة التي نشأ فيها .

أما مجتمع سبنة الذي نشأ فيه من الناحية السياسية والاجتماعية ، فالرتبط هذا المجتمع بشأنته وتكوينه العلمي . ولذلك ستبدأ بتناول الحياة السياسية لمدينة سبنة ، وليس الغرض من هذا العرض استعراض التاريخ السياسي لهذه المدينة في فترة الدراسة ، إنما الهدف هو التعرف على أهم سمات الحياة السياسية وأثر ذلك على القاضي عياض .

أولاً: الحياة السياسية في سبنة وأثرها في تفرد القاضي عياض ونبوغه .

أدى قيام الخلافة الفاطمية في الشمال الأفريقي كقوة كبيرة مانعة للخلافة الأموية بالأندلس إلى حدوث صراع ونزاع بين الخلافتين ، إذ لم يقف العاهل الأموي عبد الرحمن الناصر - الذي تلقى بالخلافة عام 316 هـ / 929 م - مكتون البديع أمام الأطاع الفاطمية التي قلصت النفوذ الأموي الأندلسي في الشمال الأفريقي ، خاصة بعد أن بدأ الفاطميون يفكرون في مد نفوذهم إلى الأندلس برسوم أعداد من الدعاء المهرة المخلصين للمذهب الشيعي ليشهدوا الطريق أمام الغزو الفاطمي بالدعاء وبالأفكار الشعبية في روع الأندلس .

(1) لمرفة الزيد من الأطاع الفاطمية في الأندلس ، أشر: أحمد مختار العبادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحفية العهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، عدد 1 ، مدريد سنة 1957 ، ص 12 ، وما بعدها ، محمود علي مكي ، الشيح في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية ، صحفية العهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، مجلد 2 ، العدد 1 ، مدريد سنة 1954 ، ص 19 ، وما بعدها ، عبد العزيز فياللي ، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الثانية 1983 ، ص 127 وما بعدها .
ولذلك قام عبد الرحمن الناصر (520 هـ - 962 م)

بإجراءات وقائية سريعة لمواجهة الفاطميين والحيد من انتشار نفوذهم ومذهبيهم.

فاتخذ سياسة اصطناع رؤساء القبائل المغربية، ولا سيما مغروة وباقي فروع
قبرة زنانة، التي أبدته تأيداً مطلقاً (1)، كما حاول أن يكسب ولاء بعض أمراء
الدولتين القائمتين في الشمال الأفريقي آنذاك مثل أمراء بني صالح حكام
نكور (2).

ولم يكتف عبد الرحمن الناصر عند حد التعريض والنشاط العدائي ضد
الفاطميين، بل تعدى ذلك إلى احتلال بعض التغيرات الواقعة على الساحل
المغربي والمواجهة للشيطان الأندلسي الجنوبي وذلك بالاستيلاء على مدينة سبتة
عام 319 هـ / 931 م (3)، ومنذ ذلك الحين أصبح حاكمها يعين من قبل
الأمويين في الأندلس.

سبتة تحت حكم الحموديين:

بعد أن خضعت سبتة للأمويين في الأندلس، لم تكن هناك أحداث تذكر
تحص تلك المدينة إلا في بداية القرن الخامس الهجري، حين تولى سليمان بن
الحكم الملقب بالمستعين (307 - 1012 هـ / 920 - 1016 م) أمير الخلافة
الأموية بالأندلس، فولى قادته على بن حمود الغزالي حكم سبتة وطنجة عام
313 هـ / 927 م لتفانيه في خدمته (4). إلا أن سبتة كان مطلعاً على
أحوال الأندلس، وما آل إليه أمره من فوضى، حتى عجز الخليفة سليمان عن

(1) مجهول: تبديل تاريخية في أخبار البربر في القرن الوسطى، نشر ليفي برونسال، البيضاء 1934، ص 4.
(2) عبد العزيز نبالي: مرجع سابق، ص 140.
(3) ابن عذاري: مصدر سابق، ج 2، ص 204.
(4) المراهي: المعلب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة 1963، ص 89.
ابن عذاري: مصدر سابق، ج 3، ص 113. فتحي الملاحم في تاريخ رجال أهل الأندلس،
دار الكتاب العربي، القاهرة 1967، ص 24.
ضبطه فبدأ يتطوع للخلافة. ولذلك اتجه إلى الأندلس ونجح في هزيمة جيشه سليمان المستعين الذي قتل عام 47 هـ/1061 م، وأعلن على بن حمود نفسه خليفة في ذلك العام، وظل خليفة لمدة عام، إذ قتل على يد الغلامين الصقالبة عام 48 هـ/1071 م.

أما أمر سبتي فقد تولاه يحيى بن علي بن حمود (47 - 41 هـ/1101 - 1067 م). بعد خروج أبيه إلى الأندلس، إلا أن يحيى نازع عمه القاسم بن حمود في خلافة قرطبة ونجح في مساعيه عام 413 هـ/1022 م، فحكم سبتي أخوه إدريس بن علي بن حمود (412 - 427 هـ/1021 - 1065 م). ولا يحيى بن علي المتولي أمر قرطبة عام 427 هـ/1066 م، خاطب مديراً أمر بن حمود وهما أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقية، ثمما الخادم الصقلي أنحاء إدريس بن علي حاكم سبتي وطنجة واستدعاه، وبايعاه بالخلافة في مالقة (3). على أن يجعل حسن بن يحيى بن علي بن حمود ولاياً على سبتي فتولاه في الفترة (427-431 هـ/1035-1039 م)، وانتهت ولايته بموت إدريس ابن علي. إذ أن الخادم الصقلي وكان سبتي استخلف عليها من وثق به من الصقالبة وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة، وهناك تمت مبايعته بالخلافة (5).

صارت سبتي يعهد بها إلى الصقالبة في الفترة من 431 هـ/1039 م إلى 438 هـ/1046 م بعد ما كان يتولى حكمها مباشرة أمراء بنى حمود، ثم

(1) الضبي: مصدر سابق، ص 27. المراكشي: مصدر سابق، ص 98.
(2) المراكشي: مصدر سابق، ص 99، 101.
(3) مالةة مدينة بالأندلس على شاطئ البحر الذي يقع في قبليها، قصتها في شرق المدينة، ولها سور صخر.
(4) المراكشي: مصدر سابق، ص 113.
(5) المصدر السابق، ص 115.
تخلصت سبتيه من كابوس هؤلاء الصقلابة الطغاة السفاكين، (1) حين توالي أمر الأسرة الحمودية إدريس بن يحيى الذي قطع مبايعته بالثقة سنة 438 هـ / 1432 م. إذ خرج من مالكة إلى سبتيه، وقضى على حكم الصقلابة، وع허 عليها رجلي من برغواطة (2) من عبيد أبيه اسم أخوهما رزق الله، والآخر سكوت، حكم الأول مدينة طنجة، أما الثاني فتوالي أمر سبتيه. ثم حدث صراع بين الاثنين انتهى لصالح سكوت، وقُتل رزق الله عام 453 هـ / 1061 م.، وبذلك أصبح سكوت الحاكم المطلق والأوحد لسبتيه وطنجة، ودعا للخليفة العباسي وضرب النقود باسمه، وجعل ابنه العز بهاء الدولة وله عهد (3). وكانت دولة بنى حمود نفسها في مالكة قد سقطت قبل ذلك بأربعة أعوام، مما شجعه على اتباع هذه السياسة. لكنه لم يلبث أن انشغل في صراع مع المعتمد بن عبيد حاكم إشبيلية (4) لرغبة الأخير في الاستيلاء على سبتيه وانتهب المعارك لصالح سكوت (5). وما كاد ينتهي من القضاء على أطماع حاكم إشبيلية حتى تعرضت سبتيه خطر دامم هو خطر المرابطين.

المفتتح المرابطي لسبيته:

Alfonso VI بسبب سوء أحوال الأندلس وطغيان الفونسو السادس عليها، تواترت الكتب والرسائل على أمر المرابطين يوسف بن تاشفين (453 - 500 هـ / 1061 - 1117 م) تستعينه على الجهاد. وكان من أكثر ملوكي

(1) محمد بن تاويت: تاريخ سبتيه، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1982، ص. 180.
(2) برغواطة قبائل تنشئ إلى قبائل المصامدة، استقرت في منطقة تاسة التي تقع بين نهري أم الربيع ونهر أبي رقراق، أنظر: الإدريس، نزهة المسافر في اختراق الأفاف، ج. 1، ص. 326، 237.
(3) ابن غنادي: مصدر سابق، ج. 3، ص. 250.
(4) إشبيلية مدينة بالأندلس بينها وبين قرطبة ثمانية ميلا، وهي مدينة قديمة أزالية وهي كبيرة عامة لها أسوار حصينة وسقية عامة، يصدر منها الزيت إلى الشرق والمغرب، أنظر: الحميسي: مصدر سابق، ص. 98.
(5) محمد بن تاويت: مرجع سابق، ص. 62.
الطوارئ سوريا لطلب لجدد ملك إشبيلية والجزيرة الخضراء المعتمد بن Algeciras، نتيجة لما ذاقته دولته من عصف هذا الملك النصري، ولذلك أرسل في عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤ م إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز إلى بلاد الأندلس برسم الجهاد ونصر البلاد. فقال له: لا يمكنني ذلك إلا بعد أن أتملك سبيته وطينة. فعرض عليه ابن عباب أن تسير جيوش المرابطين إليها وتحاصرها من البر، ويقوم هو بتأسیسه ليحاصرها من البحر. وفي سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٠ م بدأ يوسف بن تاشفين العمل للقضاء على دولة سكوت البرغواطي في سبيته وطنجة، وفي هذا العام نجح قانده صالح ابن عمران في فتح طينة بعد مقتل سكوت البرغواطي وهزيمته ولم يبق إلا سبيته. وكان عليها يحبى بن سكوت البرغواطي.

وتتبجة لاستمرار سوء أحوال الأندلس ورد على يوسف بن تاشفين كتاب آخر من المعتمد بن عباب في أواخر سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٢ م يخبره بحال الأندلس وما آل إليه من فتنة العدو على أكثر ثغوره ومدنها، وسأله العون والنصر. فأجابه يوسف: إذا فتح الله لسبتة وصلت بكم فспешتم في الجهاد العدو الجهود. واستمر عدوان الفونسو السادس على بلاد الأندلس، إذ أغار عليها وأخذ يقتل ويسبي، ويفسد ويضرب فلما رأى ذلك أمراء الأندلس اتفق رأيهم على مكاسبه يوسف بن تاشفين يستنفره. لذلك بعث ولده المعز إلى سبته في جيش عظيم عام ٨٧٧ هـ، فنزل عليها وحاصرها حتى فتحها في شهر ربيع الأول من هذه السنة / يوليو ٨٧٤ م وكتب إلى أبيه بالفتح ففرح به ودخل يوسف بن تاشفين المدينة وأصبح أحوالها وأسطولها، بعد ذلك خرج منها في جيش ضخم متوجهًا إلى الأندلس لمواجهة الأسبان وما قام به ألفونسو السادس من إفنساد أحوال العباد والبلاد. والضيق الجيشان في الزلاقة من أحوال.

(1) ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص ١٨١.
(2) المصدر السابق، ص ١٨١.
بليبيوس Badalos

يوم الاثنين الرابع عشر من شهر رجب عام 479 ه/ 10 أكتوبر 86 م وانتصر المرابطون(1)، واستحالت الأندلس من بناين العدو الذي أحاط بها، وقدر للإسلام بعدها أن يستمر في الجزيرة قرنا أخرى.

ثم جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مرتين إلى الأندلس الأولى في عام 481 هـ / 1087 م لأصالح أحواله، ولوجهة خروج ألفونسو السادس وتعديبه على المسلمين(2). أما الثانية فكانت في عام 483 هـ / 1090 م حينما حاز من سببتة قضى على ملوك الطرايف الذين كانوا قد أقاموا إمارات متناحرة بعضها يستعين بالأعداء ضد البعض الآخر، حتى كادت دولة الإسلام أن تتصدع في تلك البلاد، وبالقضاء على هؤلاء الملوك توحدت البلاد تحت رأية المرابطين(3).

أصبحت سببتة تحت حكم المرابطين ككل مدن المغرب الأقصى تتمتع بالراحة والسكون، بفضل جهود يوسف بن تاشفين التي نجحت في توحيد المغرب والأندلس وجعلهما كياناً سياسياً واحداً، على أية حال تخلصت سببتة من التمزق السياسي الذي عاشته أثناء فترة حكم أمراء الحموديين، وحكم الصقالبية والبرغواطيين، ونعمت المدينة بالأمن والطمأنينة.

لقد شاهد عياض وهو في صباه جهود المرابطين وهم يرتدون سلطانهم في سببتة، كما شاهد أيضاً الحكيم - موقع مدنته - جيوب المرابطين تزحف من مدنته إلى الأندلس لإخماد شوكة نصارى أسبانيا، والقضاء على ملوك

---


(2) مجيد سالم: الحدل المشهودة في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وأخرين، دار الريشة الحديثة.

(3) ابن أبي زرع : مصدر سابق، ص 194 وما بعدها، مجيد سالم: الحدل المشهودة، ص 71 - 77.

- 11 -
الطوابع. ولما لا شك فيه أن هذه الروح الجهادية التي بنيها المرابطون، وأعانتهم
في تحقيق الوحدة السياسية للمغرب والأندلس، فقد تركت أثرًا في شخصية القاضي عياض الذي اتخذ من العلم وسيلة لرفع رأية الإسلام في مجال الفقهاء
والعلوم الإسلامية.

ولقد أسهمت جهود المرابطين السياسية والعسكرية في تحقيق الأمن والاستقرار في كافة رموز المغرب والأندلس، وخاصة مدينة سبتة التي تدفقت عليها العلماء من مدن المغرب والأندلس وأخذت منهم عياض فنون العلم والمعرفة. فعلى سبيل المثال وفد مدن المغرب إليها القاضي أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن قاسم بن منصور الخصي (458 -
1313 هـ / 1119 م)، أصله من نكور،(1) أخذ عنه القاضي عياض الفقه وأصوله.(2) كما جالس القاضي عياض الفقهاء أبو علي الحسن بن عبد الأعلى الكلاعي الصفا قسي المتوفى عام 505 هـ / 1111 م فترة سكنه سبتة وانتفع به.(3). كما تلقى القاضي عياض دروسه في الأدب والنحو في مدينته على يد الشيخ الصالح أبي علي الحسن بن علي بن طريف النحوى التاهري المتوفى عام 610 هـ / 1177 م.(4).

أما مدن الأندلس فقد وفد منها إلى سبعة كثيرون من العلماء، أخذ عنهم القاضي عياض، منهم على سبيل المثال: أبو عبد الله محمد بن عمر الزبيدي.

---

(1) نكور: مدينة بالغرب بقرب مدينة مليلية، بينها وبين البحر نحو عشرة أميال، وقيل خمسة أسواها عامة كبيرة في اليمن.

(2) عياض: الكجية: زهرة الشيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير، دار الفكر الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1984، ص 155، 156، 157، ابن الآبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدف، ص 210، 211.

(3) القاضي عياض: الغنيمة، ص 140، 141.

(4) المصدر السابق، ص 141.
الح Rubin الحرفى المذكور عام 1106 هـ / 7 م ، وهو من أهل إشبيلية(1). ومنهم
محمد بن عبد الرحمن بن سعيد الحنوفى المذكور عام 1116 هـ / 1 م وهو من
أهل قرطبة(2). ومن طليطلة Toledo (3) وفد على سبعة الشيخ الخطيب أبو عبد
الله محمد بن علي بن محمد الأردي المذكور سنة 363 هـ / 939 م . أما
خلف بن يوسف بن فردنان الحنوفى المذكور عام 1137 هـ / 727 م ، فقد قدم
إلى سبعة من شاهين Santaren (4) وجلس في جامعها للإقراء(5). وهكذا
اقترن التقدم في حياة القاضى عياض من الناحية الثقافية بنجاح المرابطين في
فتح سبعة ودعم سلطاتهم في المغرب والأندلس.

قام بأمر المرابطين بعد وفاة يوسف بن تашكين ابنه على المولد في مدينة
سبعة عام 372 هـ / 984 م وتقلد بها عهد أبيه ، وامتد حكمه من عام 500
هـ / 1106 م إلى عام 643 هـ / 1148 م ، وكانت البلاد ساكنة والرعية آمنة
نتيجة انقطاع الثوار ، واجتماع الكلمة (7).

كان القاضى عياض يكبر الحاكم المراقب على بن يوسف بسنة واحدة فكان
للتقارب العمرى بين الاثنين أثره الكبير في توسيع العلاقة بينهما ، فشمل

(1) المصدر السابق ، ص 78 ، 1.
(2) المصدر السابق ، ص 89 ، 2.
(3) قرطبة قاعدة الأندلس ومصر فرقة الأندلس ، وهي على نفس عظيم عليه نقطة ، وأحوال قرطبة تنتهي
في الغرب إلى إشبيلية ، ونعتقل أجواءها في الشرق بأشياء جائزة . أنظر : الحميري : مصدر سابق
، ص 658 - 588 .
(4) طليطلة : بينها وبين إيجة الحجازة خمسة وستون ميلا ، وهي مركز جميع بلاد الأندلس لأن منها إلى
قرطبة تقع مراحل وإلى بلبنان تقع مراحل وإلى البحر الأبيض المتوسط أيضًا تقع مراحل وهي حصينة لها
خاصة وأنها ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص 394 - 395.
(5) القاضى عياض : الغنية ، ص 76 ، 3.
(6) شاهين مدينتها بالأندلس معروفة في كور يامز بنها وبين بطليوس أربع مراحل ، لها بساتين كبيرة وفواكه,
أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص 346 .
(7) القاضى عياض : الغنية ، ص 150 - 149 .
(7) الناصري : الاستعما لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتبة ، الدار البيضاء ، 1997 ، المجلد الأول ،
الجزء الثاني ، ص 61 .
الأهل المرابطي القاضي عياض برعايته وعنايته ، ولم تشغله سياسة الدولة المرابطية تجاها الأندلس (1) ، عن الاهتمام بالعلم والعلماة ، فناه يتصل بالقضائي عياض حين رأى حيابة في المجال الثقافي ، وبحثه على الذهاب إلى الأندلس لاستكمال دراسته ، وكتب بشأنه كتاباً إلى قاضي قرطبة أبي القاسم بن حمدين (459 - 505 هـ / 1414 - 1460 م) يوصيه به ، ويحضه على رعايته وإعانته ، وما يؤكد ارتفاع منزلة القاضي عياض عند على بن يوسف ما ورد في رسالته إلى قاضي قرطبة إذ يقول : وله - يقصد عياض - عنينا مكانته حفية تقتضي خاطبتك بخبره ، وإنهاكك إلى قضاء وطره ، وأنت إنهاك الله تسدد عمله ، وتقرب أمله ، وتصل أسباب العون له» (2). خرج عياض بن موسى إلى الأندلس في طلب العلم خمس بقين من المحرم عام 507 هـ / 1114 م يحمل توصية أمير المسلمين على بن يوسف ، وعاد إلى سبطة في السابع من جمادي الآخرة من عام 508 هـ / 1115 م (3) . وقد أظهر ما كان يأمله في هذه المدة القصيرة ، وعاد علماً شامخاً من أعلام الحضارة الإسلامية .

وإذا كانت الأوضاع السياسية المستقرة التي سادت بلاد المغرب والأندلس بوجه عام ، وبيته ووجه خاص لها أثرها في تفرد القاضي عياض وتقدمه في مجال العلم والثقافة ، فإن مجتمع سبطة بأحواله الجغرافية والاقتصادية كان له نفس التأثير والأثر . ومن ثم لا يخفى علينا تأثير مدينة سبطة موطنه في تفرده ونبغته ، فالإنسان نتاج مجتمعه ، ولذلك سنعرض لظروف الجغرافية والتحديد الموقع .

(1) عن جهود علي بن يبنه في الأندلس وحملاته أنظر : مجهول : الحلل المرشحة ، ص 85 - 86 .
(2) ابن خاfax : قلاد العيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق حسين يوسف ، مكتبة النار ، عمان ، الطبعة الأولي 1989 ، ص 278 .
(3) محمد بن عياض : مصدر سابق ، ص 6 ، ص 10 .

14 -
الجغرافى والأحوال الاقتصادية لسبتة منذ ميلاد القاضي عياض حتى نهاية المرحلة التعليمية في حياته، أي حتى أصبح أفضل علماء المغرب والأندلس.

ثانياً: المجتمع المحلي لسبتة:

تعد سبتة شبه جزيرة مطلة على البحر المتوسط، فالبحر يحيط بها من ثلاث جهات هي الشرق والشمال والجنوب، أما جهة الغرب فكل مدينة تصل بالبر بواسطة برزخ أرضي يفصل البحرين بما لا يزيد عن رمية سهم(1). ويطلق على هذا البرزخ مضيق جبل طارق الذي يصل البحر المتوسط بالبحر الأطلسي، وطول هذا المضيق الذي أطلق عليه البكرى بحر الزقاق أثنا عشر ميلا(2). ويقع بحر الزقاق في شمال المدينة، أما البحر الذي يقع جنوب المدينة فيسمى ببحر بسول وهو مرسى حسن، وسبتة في موقعها هذا تقابل في الأندلس مدينة الجزيرة الخضراء(3)، وعرض البحر بينهما ثمانية عشر ميلا(4).

وقد نعمت مدينة سبتة بفضل موقعها الجغرافى بالأمن الذي يعد من أهم مقوماتها، فالبحر الذي يحيط بالمدينة من ثلاث جهات منحنها حدوتاً طبيعية منيعة جعلها تنمو وترزده في كافة مجالات الحضارة، واستكمال السياج الأدنى للمدينة كان لابد من بناء سور ضخم محكم البناء في الجانب الغربي للمدينة المتصل بالبابس، وقد بنى هذا السور في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (300 - 310 هـ / 912 - 966 م)، ويتكون هذا السور من

(1) الأدريسي: مصدر سابق، ص 548.
(2) الملاك والمالك: تحقيق أديان فان ليرلن، واندرلي فيري، النازع العربي للكتاب، تونس 1997، ج 2، ص 78.
(3) الجزيرة الخضراء أولاً مدينة افتتحت من الأندلس سنة 90 هـ / 708 م وهي أقرب مدن الأندلس معازراً إلى بر العدوى ولها مرسى من أيسر الرمسي وبحاشية مرسى مدينة سبتة، أظهر: الحميبي: مصدر سابق، ص 326، 548.
(4) المصدر السابق، ج 2، ص 547.
تسعة أبراج، ويوجد الباب الوحيد للمدينة من جهة الغرب بالبرج الأوسط.
وأمام هذا الباب بنى سورة ارتفاعه يكفى لاحفظ رجل، ويحيط بهذا الباب خندق عميق عريض عليه قنطرة من الخشب(1).

وإذا كان الموقع الجغرافي الممتاز للمدينة سببًا جعلها تنعم بالأمان كما سبق القول، فقد ساعدها أيضًا في أن تكون من المدن العربية في القدم(2)، وساعدها في أن تكتسب أهمية كبيرة في الفترة الزمنية موضع للدراسة بناء على وصف كل من البكرى المتوفى 487 هـ/1094 م والإدريسي المتوفى عام 588 هـ/1184 م. فالمدينة - يفضل موقعها الجغرافي - ارتبطت بشبكة من المراسي الساحلية، ساعدت بالطبع على الاتصال بكل جهات الشمال الغربي من طنجة إلى الريف، وسواحله. كما كانت لها خطوط اتصال عديدة مع أقطار البحر المتوسط الواقعة شماليًا إلى بداية من الأندلس التي ارتبطت بها بروابط خاصة وانتهاء إلى شرق البحر المتوسط حيث لم يجد السفن تنطلق منها حتى تصل إلى الإسكندرية(3). وهكذا ارتبطت سببًا بفضل موقعها الجغرافي بالمركزي الثقافية التي تقع جنوب البحر المتوسط، والمركزي الثقافية التي تقع شمال هذا البحر، وستقبلت العلماء والفقهاء والأدباء بل والتجار الحاملين للعلم والثقافة من كل تلك الأقطار.

فمن التجار الذين قدموا إلى سبتيه وكانوا علماء والنقى بهم القاضي عياض
وأخذ عليهم على بن أحمد بن علي بن عبد الله الربيعي المقدسي التاجر المتوفى عام 531 هـ/1136 م ويقول عنه القاضي عياض: "حدثني بأشياء، وأجازي جميع روايته عن شيوخه أبي إسحاق الشيرازي وأبي بكر الخطيب وأبي الفتح(4).

(1) البكرى: مصدر سابق، ص: 78.
(2) المصدر السابق والجزء، الصفحة.
(3) محمد زينب: مصور ناس سبتيه وأهميته في العصور الوسطى، نشر في ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، الدار البيضاء، 1988، ص: 222.
نصر المقدسي منها كتاب البحاري، ومصنف أبو داود وشجفرة المدار قطني و 권اط "(1) . وتحقيق عياض أيضاً في سيرته بالشيخ التاجر سهل بن علي ابن عثمان النيسابوري المتوفي سنة 536 هـ - 1146 م وكانت إقامته بها مدة طويلة، ويقول القاضي عياض: "حمدت بأمالي الشيخ أبي بكر أحمد بن موفق النيسابوري، ودامته فيه صلحا منه، وكتب الآتي من حديثي للحاكم أبي عبد الله، وكتب أصول الفصول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي" كما حصل عياض منه على إجازة تجميع روايته (2) . وهكذا كانت سيرته دار علم (3) ، ففضل موقعها الجغرافي الاسم الذي تحدثنا عنه.

وكما جعلها الموقع دار علم ودار آمن فقد كان له أيضاً أكبر الأثر في اتساعها وتطور عمرانها. يؤكد ذلك إنشاء رضيئين خارج أسوار المدينة يقع الرضي الأول في الشرق وكانت مساحته كبيرة والبنائات متصلة ويتجلى هذا من وجود حمامات ثلاثة (4) أما الرضي الثاني فقد كان يقع غرب المدينة متصلة بالسوري الغربي، وطوله حوالي سبعة آلاف وأربعمائة ذراع (5) .

وقد أسهم هذا التطور العمراني الذي شهدته هذه المدينة وطبقا لما ذكره البكري إلى تنوع عناصرها السكانية، إذ سكنها العرب والبربر، لكن البكري ينسب العرب إلى قبيلة صدف، أما البربر فقدموا إليها من ناحية أصلية والمصرية (6).

(1) القاضي عياض: الغنية، مصر: سابق، ص. 181، ابن بشكاوي: كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والتوجيه، القاهرة 1966، ج 2، ص 33، 43.
(2) القاضي عياض: مصر: سابق، ص. 209.
(3) البكري: مصر: سابق، ج 2، ص 780، 479، 780.
(4) المصدر السابق، ج 2، ص 789.
(5) جاك كاني: مدينة سبئية في أواخر القرن الخامس الهجري من خلال كتاب المسالك والممالك، مجلة البحث العلمي، العدد 19، الرياض: يونيو 1972، ص. 98.
(6) المسالك والممالك، ج 2، ص 780.
لكن من الصعب القبول بما ذكره البكري بنسبة غرب سبنة إلى قبيلة صدف، لأن الوقائع تؤكد تعدد العناصر العربية التي سكنت سبنة، يشهد على ذلك أن القاضي عياض سبتي الدار والميلاد، عربي الأصل ينسب إلى قبيلة يحصب الحميرية، وقد هاجر أجداده إلى سبنة في الرابع الأخير من القرن الرابع الهجري، إذ توفي جده عمرو أول من هاجر من تلك الأسرة عام 397 هـ / 1006 م. (1)

والرجوع إلى برنامج شيوخ القاضي عياض نجد الكثير من أبناء القبائل العربية التي سكنت سبنة، منهم الفقيه القاضي محمد بن عيسى بن حسين التميمي (496 - 505 هـ / 1097 - 1106 م) الذي ينسب إلى قبيلة تيم، والذين ولد مدينة فاس وانتقل به أبوه إلى سبنة وهو شاب وقابل عنه القاضي عياض: "أجل شيوخ بلدنا سبنة" (2). ومنهم أيضا القاضي الخطيب عبد الرحمن بن محمد المعافر السبتي المتوفي سنة 530 هـ / 1134 م الذي ينسب إلى قبيلة معافر (3). ومن الأزد سكن سبنة الفقيه عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي، وكانت له حلقة بجامع المدينة (4). ومن قبيلة قزم استوطن سبنة القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم (486 - 513 هـ / 1095 - 1123 م) وتولى القضاء بها، وكان يدرس بالمدينة أصول الفقه والدين (5). كما استوطن سبنة واتخذها مقاماً من البيت الأموي القرشي الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأموي (433 - 467 هـ / 1041 - 1123 م) وهو من شيوخ سبنة تولى بها القضاء والفتوى (6).

(1) ابن عياض: مصدر سابق، ص 3.
(2) الغنية، ص 37.
(3) المصدر السابق، ص 165.
(4) المصدر السابق، ص 165، ابن الأبار: المعجم، ص 260.
(5) ابن الأبار: المعجم، ص 211.
(6) الغنية، ص 58.
ولا شك أن هذه الترجمة تبين أن سبّتة سكنتها عناصر عربية تنتمي إلى تيميم، وبحسب ومعاصر والأزد وقُرّش، ولم تسكنها قبيلة صفوف فقط، كما ذكر ذلك البكري.

أما العناصر البربرية التي سكنت سبّتة فإنها تنسب إلى القبائل الغمارة المصمودية، بالإضافة إلى بعض العناصر البربرية الأخرى من غير مصمودة، وإذا كان من الصعب عمل إحصاء محدد لسكان تلك المدينة زمن القاضي عياش، إلا أننا نستطيع أن نؤكد ارتفاع الكثافة السكانية، يدعم ذلك ازدهار وتطور عمران المدينة بقيام أحياء جديدة سبقت الإشارة إليها، مما أسهم في ذلك التطور أيضاً تنوع أوجه النشاط الاقتصادي لسبّتة، فقد كانت «مدينة حط وإقلاع للسفن».

ثالثاً: النشاط الاقتصادي لسبّتة:

نعمت سبّتة زمن القاضي عياش بمقومات اقتصادية أسهمت في ازدهارها تجاريًا وصناعيًا وزراعيًا. أما عن النشاط الزراعي في المدينة وضواحيها فالمعلومات التي أوردها البكري والإدريسي - قليلة جداً - وتضمنت تونينش التي تقع بجوار جبل موسى المسموب إلى موسى بن نصر، والذي يقع جهة الغرب ويعد دقعاً عن المدينة مسافة ميلين. وقد أعنت المعطيات الطبيعية لهذا المكان على ازدهار زراعته بالأرض شديدة الخصبة، وتوفرت لها المياه اللازمة للري بفضل وادي ير بغرب المدينة وصب في البحر، بالإضافة إلى مياه الري الكثيرة.

---
2. (2) الأولدريسي: مصدر سابق، ج 2، ص 528، 529.
3. (3) المصدر السابق والجزء، ص 528.
4. (4)benhavn: الاستيعاب في عجائب الأنصار، نشر وتعليم دكتور عبد الله غلام، دار الشروق، الثقافة العامة بغداد 1988، ص 128.
5. (5) البكري: مصدر سابق، ج 2، ص 783، الأولدريسي: مصدر سابق، ج 2، ص 528.
ونتيجة لهذه الظروف الملاحصة قام نشاط زراعي كبير في قرية بلبيوش ،
فانتشرت بها المزارع والبساتين التي زرع بها الفواكه وقصب السكر والأرج
البرتقال » . وحملت منتجات هذه القرية الزراعية من الفاكهة إلى سبته وما
جاورها من المدن لوفرة إنتاجها . (1) لكن الإنتاج سبته من القمح والشعير لم يكف
حاجة سكانها ، لذلك استوردت هذين المحصولين من ميناء ماز يغن ، وهو من
موانئ المغرب الأطلسي (2).

بالإضافة إلى النشاط الزراعي راجت في سبته حكم موقعها البحري حرفة
الصيد البحري ، وتعددت أنواع الأسماك التي تتصادم حتى بلغت نحو مائة
نوع (3) . كما اشتهرت المدينة باستخراج شجر المرجان الذي يعد الأفضل من بين
أصناف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار ، وكان يصل في المدينة خرزاً ،
ويصدر إلى سائر البلاد ، وكان أكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان (4).

وإذا كان البحر قد لعب دوراً هاماً في توحيد نشاط السبتيين نحو حرفة
الصيد البحري على هذا النحو ، فقد وجههم أيضاً للعمل في نشاط التجارة
البحرية . والواقعي أن النشاط التجاري لسبتة لم يزدهر بعزل عن النشاط الزراعي
والصناعي . ذلك أنهما صدرت فاكهة قرية بلبيوش بالإضافة إلى نتاج تصنيع
المرجان إلى بلاد كثيرة كما سبق القول . والجدير بالذكر أن البكرى الذي تحدث
عن هذه المدينة في أواسط القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي قد
أغفل ذكر النشاط التجاري لها ، فلا نكاد نعثر على أي معلومات حول النشاط
التجاري لسانتها . بالرغم أن سبته كانت تمثل نهاية الطريق التجاري الذي كان ير

(1) الإدريسي ، مصادر سابق ، ج2 ، ص 528.
(2) ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العريفي ، مشاريع المكتب التجاري للطباعة والنشر ،
بيروت ، الطبعة الأولى ، 1987 ، ص 137.
(3) الإدريسي ، مصدر سابق ، ج2 ، ص 528.
(4) المصدر السابق والجزء ، ص 529.

- 200 -
بسجلماسة (1) وفاس (2) كما كانت ترسو بها كل سفينة تبحر في البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي فموقعها أعينها في ازدهارها كميناء تجاري. يدعم هذا الرأي ما ورد عند الادريسي، إذ يذكر «أن البحر الذي يلي سبتة في الجنوب يسمى بسول وهو مرسى حسن» عن أن السفن التجارية كانت ترسو بها (3).

والرجوع إلى بعض المصادر ذات الأهمية الحضارية مثل كتاب التراجم والنوازل نجد ما يؤكَّد هذا الأمر، فعبد الحق الباديس في ترجمته لأحد الصوفيين، ما يدل على أن السفن كانت تخرج من ميناء بسول في سبتة إلى ميناء باديس (4) الواقع في بلاد الريف (5)، وإلى جميع مراسى البحر المتوسط الواقعة شماله وجنوبه. كما توضح نازلة أجاب عنها القاضي عياض أن حركة التجارة البحرية بين سبتة وبعض الموانئ المغربية الأطلسية مثل ميناء ماز يغن (6) كانت نشطة، إذ كانت السفن تنقل من الميناء الأخير إلى سبتة القمح والشعير (7)، ويؤكد ما جاء في هذه النازلة ما ورد عند ابن سعيد حيث يقول: «ماز غان تحمل منها المراكب القمح إلى سبتة وغيرها» (8).

(1) مدينة سجلماسة من أعظم مدن المغرب، وهي على طرف الصحراء، مدينة محددة أمست سنة 1440 هـ.
(2) جاك كاني: مرجع سابق، ص 99.
(3) الادريسي: مصدر سابق، ج 2، ص 528.
(4) باديس مرسي ببلاد الريف تحت جلب غمامة عليه عمارة كثيرة من البر، ومنه تحمل المراكب العطام أنظر: مجهول: الاستعمار، ص 136.
(5) المقصد الشريف والمنعز الطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد إبراهيم، الطبعة الملكية، الريان، الطبعة الثانية، 1993، ص 132.
(6) ماز يغن: مرسي يقع على ساحل البحر الحمطي، أنظر: ابن سعيد، ص 137.
(7) عياض ووليد محمد: مذاهب الأحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريف، دار الغرب الإسلامي، بروت، الطبعة الأولى، 1990، ص 128، 129، 137.
(8) كتاب الجغرافيا، ص 137.
كما ارتبطت سبأنة بالعلاقات التجارية مع بعض مدن الأندلس وبخاصة مدينة الجزيرة الخضراء، التي كانت ميناء حط وإقلاع السفن. ساعد على ذلك أن بينهما وبين سبأنة مضيق جبل طارق الذي لا يتجاوز ثمانية عشر ميلاً (1). كما كان لسبأنة ارتباط تجاري وثيق مع غانة وبلاد السودان الغربي، فقد صدرت إليها الخرز المصنف من المرجان (2) وفي مقابل ذلك كانت أسواقها تستقبل السلع التي اشتهرت بها تلك البلدان مثل الذهب والدقيق.

وإذا كانت المصادر الجغرافية المتاحة، والتي تعود للفترة الزمنية للدراسة، لا تعين في الحديث عن أسواق مدينة سبأنة مع شهرة المدينة التجارية، فإن نوازل القاضي عياض تذكر أسماً بعض أسواقها، فنجده في ناولة تتعلق بأحباش أسرة كبيرة في سبأنة هي أسرة مصمد بن أبي مسلم الصدغي، وفيها إحصاء لهذه الأحباش بحدودها تناول فيها أسماً بعض الأسواق التي انتشرت في سبأنة منها سوق العطارين، وسوق الشقاقين، وسوق الحجارين، كما نجد اسم فندق لأحمد بن إبراهيم الزيات، مما يعنى استقبال المدينة للتجار الغربيين (3). وهي ناولة أخرى خاصة بالأحباش تدل اسم سوق الزيت، ومسجد القطانين (4) الذي يبدو أنه كان يقع داخل سوق القطانين. وقد أدى وجود هذه الأسواق وغيرها إلى نشاط الحركة التجارية التي أسهمت بدورها في ثراء سبأنة وتجارها، حتى إن الواحد من هؤلاء التجار كان يشترى أحياناً حصولاً السفن الوردة إلى ميناء سبأنة بأكملها (5). وساعد على ذلك السياسة المالية التي طبقتها الدولة المرابطية وخاصة في مجال الجباية.

(1) الأدبي: مصدر سابق، ص 539.
(2) المصدر السابق والجزء، ص 529.
(3) نوازل الأحكام، ص 194.
(4) المصدر السابق، ص 205.
(5) ابن سعيد: مصدر سابق، ص 137 وما بعدها.
فقد قامت السياسة المالية للدولة المرابطينية على أساس محاولة تطبيق الكتاب والسنة في ميدان السياسة الجبائية، وهي محاولة منسجمة مع منطق الدعوة التي قامت على أساس المذهب المالكي، وتعتبر أساساً على نص الكتاب والسنة (1). فعهد الله بن ياسين حين شرع في تنظيم شئون المناطق التي فتحت أمر عمالة بإقامة العدل والعمل بالسنة وأخذ الزكاة والأعشار وإسقاط ما سوى ذلك من المغامر المحدثة (2).

واستمرت هذه السياسة الجبائية في عهد يوسف بن ناشفين (3) 500 - 1061 هـ. إذ فقد ابن أبي زرع يقول: "لم يوجد في بلد من بلادنا، ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج عن حاضرة ولا بادية إلا ما أمر الله تعالى به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل اللذمة" (3). ونتيجة عن سياسة الدولة المرابطينية في إسقاط المكوس والقضاء على المغامر المحدثة التي كانت تنتقل كاهل التجار والزراع تشتيت الحياة الاقتصادية بوجه عام وحركة التجارية بوجه خاص، إذ أدت هذه السياسة إلى انخفاض الأسعار، وظهور فترة من الأمن الاقتصادي والرخاء، إذ كانت "أيامهم أيام دعوة ورفاهية ورخاء متصل وأمن، وكثرة الخيرات وعمرت البلاد" (4).

في ظل هذا الوضع الاقتصادي المزدهر لسبيتة أبيض القاضي عياض نور الحياة، فأمكانياتها الاقتصادية بفضل موقعها الجغرافي الذي وفر لها الشروط اللازمة لازدهار مينائها الذي ارتبط بموران البحر المتوسط والمحيط

(1) الحيوي الجبائي: دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي
(2) ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص 163
(3) المصدر السابق، ص 173
(4) المصدر السابق، ص 210
الأطلسي. فعرفت سبأ ثراء في مجال التجارة والثقافة، فالمدينة كما استقبلت التجار استقبلت العلماء في كافة مجالات العلم والمعرفة، يشهد على ذلك فهرس أسماء شيوخ القاضي عياض الذي يظهر العلماء الذين وفدو إلى سبأ وأخذ عنهم القاضي عياض العلم، بالإضافة إلى التجار الذين حملوا التجارة والعلم إليها.

بعد هذا العرض الذي أبرز المجتمع الذي أنتج القاضي عياض جمهوره في إبراز العوامل التي أسهمت في تفرد القاضي عياض وتوبغه في المجال الثقافي، أي التكوين العلمي له.

رابعاً: مصادر ثقافة القاضي عياض:

يعين كتاب اللغة الذي يعرض لفهرس شيوخ القاضي عياض، بالإضافة إلى كتب الطبقات والتراجم، في تحديد المصادر التي أسهمت في أن يكون القاضي عياض الأفضل من بين معاصره في مجال الثقافة. فبالإضافة إلى سبأ التي تعد المصدر الأول والرئيس لثقافته نهلا مصادر كن لهما أكبر الأثر في تقدمه الثقافي، هما الأندلس والشرق الإسلامي، الذين كان تأثيرهما واضحًا عليه.

أما المصدر الأول وهو سبأ موطنه، فقد كانت تعد مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية في بلاد المغرب، ذلك أنها احتضنت عدداً غير قليل من رجال الفكر والثقافة من العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين بالإضافة إلى الأدباء والنساء، وكان لهؤلاء العلماء الفضل في التكوين الثقافي للقاضي عياض. كما كانت سبأ بحكم موقعها الاستراتيجي قاعدة لاستقبال المفكرين والعلماء، وفي كافة فنون العلم والمعرفة القادرين إليها من الأندلس والمغرب بالإضافة إلى الشرق الإسلامي.

(1) انظر ص 15، 16.
من أجل شيوخ القاضي عياض بن موسى في مدينة سبنة الفقيه القاضي
محمد بن عيسى بن حسين النهمي (429 هـ - 50هـ / 1371 - 1111 م)
الذي كان فصيحاً كثير التأليف حافظاً للفقه. وله تشيده العلمية تلك لأزمه
القاضي عياض للمناظرة في المدينة والموطأ وسماح المصنفات، وحصول منه على
الإجازة لجميع روآبه. ١١)

كما أخذ عياض العلم في مدينة على يد الفقيه القاضي محمد بن عبد الله
ابن محمد الأولي (٤٣٣ - ٥١٧ هـ / ١٠٤١ - ١١٢٣ م) الذي يقول عنه
القاضي عياض: "شيخ بلدنا قاضيهم ومفتيهم". فقد تولى قضاء سبنة مرتين
الأولى أيام سكوتو البرغواطي، والثانية في أول دولة المرابطين. وكان حافظاً
لفقه والفرائض، كما كان مشاركاً في التنسيق والعلم النسائي، والمسوحون، وغير
ذلك من العلوم. ٢٠)

وقرأ القاضي عياض بن موسى القرآن الكريم وتعلمه على يد الشيخ محمد
ابن عبد الله المعروف بالموروي المتوفى في حدود عام ٥٠٠ هـ / ١١١١ م والذي
تصدر لإقراء القرآن بسبنة، لأنه كان عالمًا في علم القراءات وإختلاف القراء. ٢٢)
وصحب عياض بن موسى في مدينة الفقهاء إبراهيم بن حجر بن أحمد اللواتي
المعروف بابن القاضي المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م والذي يعد من أهل الفقه
والعلم والمعرفة، ولذلك قرأ عليه الكثير من كتب الفقه والحديث. ٢٤)

١١) عياض: الغنية، ص ٣٧، ٣٨، المقرى: أزهار الرياض، ج ٣، ص ١٥٩، ابن القاضي: جذوة
ال униاد في ذكر من حل في الأعلام مدينة سبنة، دار النصير للطباعة، الرياض ١٩٧٤، ج ١، ص
٢٥٤ - ٢٥٥.
٢٠) عياض: الغنية، ص ٥٨.
٢٢) المصدر السابق، ص ٩، ابن الأبار: للكتاب، لكتاب الصلاة، تحقيق السيد عبد العظيم، مكتبة
اللغت، القاهرة ١٩٥٥، ج ١، ص ٤٨.
٢٤) ابن فرحون: النقبي، في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأمين أبو النور، دار
التراث، القاهرة ١٩٦٢، ج ١، ص ٣٩، ٣٧٠، ابن بشكول: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠١،
ابن الأبار: المجمع، ص ٢٣.
ولما كان إبراهيم بن أحمد البصري، أبو إسحاق القاضى المتوفي عام 513 هـ / 1119 م أحد الفضلاء الإجلاء من أهل سبعة التي تفقه بها وتولى القضاء منها مرتين، وكان من أعلام المذهب، فقد ناظره عياض في المدينة وذكره(1). أما الفقيه عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي، المتوفي عام 527 هـ / 1132 م فيبعث أحد الخلفاء الولدين للذين مالكى العاملين به، ولذلك برع في الفقه وكانت له حلقة علمية بجامع سبعة، وناظره عياض في هذا المذهب(2).

ما يدل على روسخ قدم الأخير في مجال العلم والفقه حتى وهو طالب علم.

ومن أهل سبعة الذين قرأ عليهم عياض بن موسى الأصول وعلم الكلام، القاضي الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافر المتوفي عام 502 هـ / 1108 م فقد تولى الخطابة والقضاء في سبعة وتخصص في تدريس الأصول وعلم الكلام، مما جعل الناس يرحلون إليه للدراسة عليه. (3) أما الفقيه عبد الغالب بن يوسف، أبو محمد السالمي المتوفي عام 516 هـ / 1125 م فيبعث أيضاً من أهل علم الكلام، فقد كان من الأشاعرة، وتولى الخطابة وصلاة الجمعة في سبعة مدة طويلة، وصاحب عياض بن موسى وأخذ عنه الكثير من مؤلفاته. (4)

و تلقى عياض دروسه في الأدب والنحو على يد الشيخ أبي على الحسن ابن علي بن طريف النحوي المتوفي عام 501 هـ / 107 م عالم سبعة في النحو قال عنه القاضي عياض: "درس عصره النحو ببلدنا وأخذ عنه جماعة." (5)

(1) عياض: الغنية، ص 123، 124.
(2) المصدر السابق، ص 154، 155، ابن الأبار: المعمم، ص 22.
(3) عياض: الغنية، ص 166.
(4) المصدر السابق، ص 169-171، ابن بشكوال: مصدر سابق، ج 2، ص 388.
(5) عياض: الغنية، ص 141، ابن الأبار: المعمم، ص 81، المسيبب: بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحواء، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة المصرية، بيروت 1964، ج 1، ص 513.
كما كان الشيخ الصالح الزاهد أبو محمد عبد الله بن أحمد التميمي والمتوفي عام 501 هـ / 1170 م من أهل سبتة، وسمع منه القاضي عياض كتاب "الأخبار عن فوائد الأخبار" من تأليف الشيخ الزاهد أبي بكر محمد بن إسحاق وأجازه له جميعه(1)، كما التحق القاضي عياض أيضاً في سبأة بأبي العباس أحمد بن قاسم الصنهاجي وهو من شيوخ أهل العلم والخير، وروى عنه عياض حديثاً شريفاً (2).

وإذا كان القاضي عياض بن موسى استفاد من لقاء علماء سبأة، فقد استفاد أيضاً من العلماء الذين وفدوا على مدينته من مدن المغرب والأندلس بالإضافة إلى المشرق الإسلامي.

فمن مدن المغرب وفد إلى سبأة اثنتان من علماء صفاقس، (3) الأول هو الفقيه أبو علي الحسن عبد الأعلى الكلاعي المتوفي عام 505 هـ / 1111 م والذي جالسه عياض فترة سكناه في سبأة، وانتفع بعلمه لأنه كان فقيهاً أصولياً متكملماً عارفاً بعلم الفرائض وغير ذلك من المعارف، (4) أما الثاني فهو الفقيه الزاهد أبو الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد المتوفي عام 501 هـ / 1117 م وقد التقاه عياض حين وفد على مدينة سبأة، وكان أبو الطيب من علماء الفقه والكلام ومن أهل البلاغة والنظم والنثر (5).

واجتاز سبأة قادماً من مدينة نكور القاضي أبو محمد عبد الله بن إبراهيم ابن قاسم بن منصور اللحمي المتوفي عام 513 هـ / 1119 م الذي ولد قداء

---

(1) عياض : المغنية ص 159.
(2) المصدر السابق ص 116.
(3) مدينة صفاقس من مدن إفريقيا (تونس الحالية) ، بينما بين فقهاء ثلاثة أيام ، مدينة قدية عامة ، لها أسواق كبيرة وعمرة شاملة وترصدها التجار من الآفاق ، أنظر : الحميري : مصدر سابق، ص 396.
(4) عياض : المغنية ص 141. ابن الأبار : المكملة ج 1 ص 299.
(5) المغنية ص 210.
سبحة ، وكان له مجلس علم بـها يحضره الآباء في شيوخها . وقد ناظره عياض
في المدينة والموطأ وأصول الفقه والديين (1) .

ومن مدينة طنجة (2) وفد إلى سبحة الفقيه أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك
بن إبراهيم بن سمحون اللواتي المتوقي عام 591 هـ / 972 م ، والذي بعد من أهل
العلم والفقه والأدب فقد تولى الخطبية والصلاة والفتيا في سبحة ، والتقى به
عياض في بعض جيشه إليها وقال عنه : « لقيته أول طالب للأدب ، وحضرت
مجلسه » (3) .

ويعد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحمين الكتاتب الفقيه
القاضي المتوقي عام 515 هـ / 1121 م من بيت علم ، فهو فقيه بن فقيه ، انتقل
إلى سبحة من أصيلا (4) ، ودرس الفقه ، وحدث عياض ببعض الأحاديث . (5)

أما الأندلسية فقد وفد عدد غير قليل منهم إلى سبحة من مختلف مدن
الأندلس ، فمن مدينة قرطبة وفد محمد بن عبد الرحمن بن سعيد النحوى المقرئ
المتوفي عام 550 هـ / 1161 م وقد أخذ عنه طلاب العلم النحو والقراءات
والأدب ، وسمع منه عياض بقراءة غيره الكثير (6) .

ومنهم أيضاً الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن البراء الجزيري
المتوفي عام 500 هـ / 1106 م ببلده الجزيرة الخضراء ، أقرأ النحو والأدب

(1) الغنية ، ص 155 ، 165 ، ابن الأباب : المعجم ، ص 210 .
(2) طنجة مدينة بالخليج دفعة على ساحل البحر وتبين بين سبعة ثلاثين ميلا في البر ، ومسافة ما بين طنجة
والقبرة ألفا ميل ، وعمل طنجة إمارة شهر في مملكة ، أنظر : الخريجي : مصدر سابق ، ص 395 ،
1896 .
(3) عياض : الغنية ، ص 197 ، ابن الأباب : التكلفة ، ج 2 ، ص 698 ، مجهول : نبذ
تاريخية ، ص 166 .
(4) أصيلا بلدة بقرب طنجة ، ومدينة كبيرة قديمة عامة أهلها كثيرة الخير والخصب وكان لها مرسى مقصود ،
وهي أول مدن العودة من جانب الغرب وهي في سهل من الأرض ، أنظر : الخريجي : مصدر سابق ، ص 42 .
(5) عياض : الغنية ، ص 169 ، 173 ، ابن فرحون : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 478 .
(6) عياض : الغنية ، ص 89 .
بسبتة(1) . وذكرنا عاش فيها في سنة 493 ه / 1099 م كتاب
الكاتب لأبي العباس المبرد بالإسلام (2).

وقد جالس عياش بن موسى في دينته سبحة الشيخ الصالح أحمد بن محمد
بن عبد الرحمن الأنصاري الوعظ المنشوف عام 500 هـ / 11 م والواحد من
شوارقة من أعمال بلنسية Valencia(3) وقد سكن هذا الشيخ سبحة كثيراً وسمع
منه عياش (4) ومن الأندلسيين الذين التقى بهم عياش في سبحة الوزير الكاتب
Abd El-Majid بن عبدون الفهري البابري ، نسبة إلى بابرة Evora
والوثبي عام 537 هـ / 1132 م وهو من الأدباء والعلماء وفحوصل الشعراء ، سمع منه عياش
قصيدة النائمة في الرثاء (5) ، وأجازه جميع روائاته (6).

ومن سالفة وفد إلى سبحة الأستاذ أبو الخسين يحيى بن الطراوة النحوي
الأديب ، أحد أئمة الأدب والنشر ، جالسه عياش كثيراً وحضر مجالسه في
الأدب والشعر واستفاد منه (7).

كما التقى عياش في دينته بإثنين من علماء مدينة إشبيلية ، هما محمد
ابن عمر بن قطري الزبيدي النحوي ، الذي كان من بيت علم واستوطن أخيراً
سبحة ويا توفي عام 501 هـ / 117 م ، وكان مدرساً لل نحو والعربية مع علم
الأصول والعقيدة ، وحدث القاضي عياشاً بكتابه ( الفقيه والمثقف ) سماعاً

---

(1) السيوطي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 150 .
(2) عياش : الغنية ، ص 79 ، ابن الأبار : التكلمة ، ج 1 ، ص 464 .
(3) بلنسية من مدن شرق الأندلس بينها وبين قرطبة سنة عشر يوماً ، مدينة سهلية وقاعة من تراث الأندلس
بها أسواق ونحو إقلاع بينها وبين البحر ثلاثة أملاك أخرى : الخميري : مصدر سابق ، ص 97.
(4) عياش : الغنية ، ص 164 ، ابن بشكالا : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 73 .
(5) بابرة مدينة من غرب صقلية والأندلس ، وهي مدينة عريقة ، وقدم أحياز باحة فيها حواليها منة ميل ، أنظر :
الخميري : مصدر سابق ، ص 65 .
(6) الإطلاع على القصيدة الرائية أنظر : المرادي : المجمع ، ص 179 - 140 .
(7) عياش : الغنية ، ص 171 .
(8) عياث : مصدر سابق ، ص 243 ، السيوطي : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 841 .

---

- ٣٩ -
منه(1). أما العالم الثاني فهو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعاوقري المتوفي عام 543 هـ / 1148 م. التقى بعياض حين اجتاز سبتيته فأكتب عنه نوادر من حديثه، وحدثه بكتاب "المؤلف والمختلف" للدار قطبي بالسند المتصل حتى المؤلف، كما لقب عياض أثناء رحلته للأندلس في إشبيلية وقرطبة(2).

وسمع عياض في بلده من الشيخ الخطيب أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الأردي، أحد أعلام طليطلة تولى الخطبة وصلاة الجمعية بدمية سبتيية إلى أن توفي سنة 502 هـ / 1109 م(3).

كما التقى عياض في سبتية باثنين من علماء شترين: الأول كان من علماء الحديث وهو أبو الأصغري عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى الزهري المتوفي عام 530 هـ / 1135 م، دخل هذا العالم سبتيته مرات عديدة وقال عنه القاضي عياض: "ناولني كتب القاضي أبي الوليد الباجي مثل كتب التعديل والتجريح وغيرها، وحدثني بجميعها عنه(4). أما الثاني فهو من أئمة النحاة والأدباء، وهو خلف بن يوسف بن فرون النحوي المتوفي عام 537 هـ / 1142 م أخذ العلم في بلده وانتقل إلى سبتية وقام بالإقراء فيها وقرأ عليه القاضي عياض كتب النحو واللغة والأدب(5).

ومن مدينة سرقطسة(6) قدم إلى سبتية الشيخ علي بن يوسف بن موسى الكلبي المتكلم النحوي الذي كان من العلماء بعلم التوحيد والاعتقادات على

(1) عياض: مصدر سابق، ص 76، السيرطي: مصدر سابق، ج 1، ص 199.
(2) عياض: مصدر سابق، ص 66 وما بعدها.
(3) المصدر السابق، ص 76.
(4) ابن بشكول: مصدر سابق، ج 2، ص 441، 442، 444، عياض: مصدر سابق، ص 183، 184.
(5) عياض: مصدر سابق، 149، السيرطي: مصدر سابق، ج 1، ص 577.
(6) سرقطسة من مدن شمال شرق الأندلس، وهي قاعدة من قواعد الأندلس وهي من أطيب البلدان بقعة.

1 سقطت في يد التحراري سنة 502 هـ / 1108 م. أنظر: الحميي: مصدر سابق، ص 317. 

- 30 -
من مذهب الأشاعزة، كما كان عالماً بال نحو والأدب. وفي فترة سكناه مدينة سبتة قرأ عليه عياض أرجوزته التي ألفها في الاعتقادات.

وأيضاً التلقى عياض في بلده بالحدث الراوية أحمد بن طاهرين على بن شيرين الأنصاري المتوفى عام 1126 هـ من أهل دانية Xatva(6) وقد جالسه عياض كثيراً وسمع العديد من تصانيفه في الحديث النبوي، منها أطراف الموتاء رجال مسلم (4).

أما الفقيه الراوية أبو عمران موسى بن عبد الرحمن المتوفى عام 517 هـ في بلدة شاطبة Xatva(5) ومفتيتها، فقد سمع منه عياض حين التقاء في سبتة كتاب الفصول لأبي عبد البر، كما حصل منه على إجازة جميع رواياته (1).

ومن سمع منه عياض في سبتة الخطيب عبد الله بن محمد بن عبد الله بن Marcia محمد العذر المتوفى عام 538 هـ / 1433 م، وهو من مدينة مرسية شاركه عياض في شيوخه وسمع منه مع جماعة في مدينة Xatva(8).

ومن المشهرين الإسلاميا وفد إلى سبتة عالaman: الأول قدم من بيت المقدس وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن عبيد الله الراوي الشافعي التاجر المتوفى عام 536 هـ / 1136 م. حدد هذا العالم القاضي عياض بأشية وأجازة جميع Xatva.

---

(1) ابن بشكوال: مصدر سابق، ص 2، ص 382، السيوطي: مصدر سابق، ج 2، ص 366.
(2) عياض: الفقهاء، ص 226.
(3) دانية مدينة بشريxAتباXا أنفسه على البحر، عاصرة حسنة لها ريب عامر، وعليها سور حصن أثر: الحميري: مصدر سابق، ص 372.
(4) عياض: الفقهاء، ص 118.Xatva.
(5) شاطبة مدينة جليلة بالأندلس قريبة من جزيرة شفر، حاضرة أثاره أنظر الحميري: مصدر سابق، ص 377.
(6) عياض: الفقهاء، ص 195، ابن الأبار: المصدر، ص 192، 193.
(7) مرسية مدينة بالأندلس منها إلى قرطبة عشر مراحل ومنها إلى بلنسية خمس مراحل، لها ريب عامر آل أثار: الحميري: مصدر سابق، ص 539، 540.
(8) عياض: الفقهاء، ص 156، 157، ابن الأبار: المصدر، ص 220، 221.
روابطه وتصانيفه(1). أما العالم الثاني فقد قدم من نيسابور(2) هو الشيخ التاجر سهل بن علي بن عثمان المتوفي عام 536 هـ / 1140 م، أقام بسبتة مدة طويلة، وحدث عياضاً بعدة مؤلفات منها كتاب الأربعين حديثاً للحاكم، وكتاب أماله الشيخ أحمد بن محمد بن خلف الشيرازي وغيرها(3).

أما المصدر الثاني الذي نهل منه عياض فهو الأندلس الذي كان يعد في ذلك الوقت مركزاً رئيساً من مراكز العلم والعرفة في العالم الإسلامي، ولذلك رحل إليه القاضي عياض بعد أن قرأ في بلده القراءات والفقه وأصوله والحديث وعلومه وعلم الكلام، واللغة العربية وأدابها. كما تفقه في المذهب المالكي حتى أصبح فقه مالك من أهم المكونات الفكرية التي صاغته فكره. إذن قبل أن يرحل عياض إلى الأندلس كان له حظ وافر من العلم (4) فلماذا رحل؟ إجابة هذا السؤال تجدها في كتاب أمير المسلمين على بن يوسف إلى ابن حمدين قاضي قرطبة يوجيه بعباسي فيه يقول له: "وعنده دواوين أفغالة، ولم تفتح لها على الشيخ أفقال، وقصة تلك الحضرية ليقيم أود متنوتها" (5). وهو كلام يدل على مدى سعة علم القاضي عياض آنذاك. لكن يبقى السؤال: لماذا رحل أذن إلى بلاد الأندلس؟

لقد رحل عياض إلى الأندلس لتصحيح المتون الروية، والبحث عن أصولها. ووصل أسانيدها بأصحابها، والبحث عن أعلى هذه الأسانيد وأقومها وأصحها. فهذه المادة الروية إذا لم تثبت نسبتها إلى عالم لا تصلح أن تتخذ أساساً

(1) عياض: مصدر سابق، ص 181.
(2) نيسابور من بلاد خراسان، بلد واسع افتتحها عبد الله بن عامر في خلافة عثمان سنة 30 هـ.
(3) أرض سهلة، أنظر: الحميري: مصدر سابق، ص 588.
(4) عياض: مصدر سابق، ص 209.
(5) ابن خاقان: قلائد العقاب، ج 1، ص 378.
(6) المصدر السابق الجزء والصفحة.
للبحث والدرس وبناء أحكام عليها، سواء كانت هذه الأحكام دينية أو علمية أو أدبية. هكذا كان عياض حريصاً على إكمال وسلامة المنهج العلمي في النقل والأخذ عن غيره (1)، وذلك من خلال مقابلة كتب بالأصول الصحيحة (2) والبحث عن أصول كتب العلماء الخطبة المسندة إليهم (3).

ولذلك كانت هذه الرحلة موضوع اهتمام الحاكم المرازيق على بن يوسف الذي أوصى قاضي قرطبة الاعتناء بأمره، وقد ساعدت هذه التوصية عياضاً في إنجاز ما أمله في مدة قصيرة فقد كان خروجه من سبتي في يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة 1413 هـ، فوصل قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة، وأقام فيها مدة عام إذ عاد إلى بلده سبت ليلة السبت السابع من جمادى الآخرة، من عام 1414 هـ (4).

وأثناء إقامة عياض في قرطبة التقى بالعديد من علمائها في كافة مجالات العلم والمعرفة فالتقى بالعديد من فقهاء تلك المدينة، منهم الفقيه القاضي ابن حمدين، محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز التغلبي (5 499 - 5 03 هـ) (1961 - 1967). وهو أول من التقى بهم عياض في بداية رحلته إلى الأندلس ليسلم له رسالة أمير المسلمين على بن يوسف المتضمنة التوصية به، وبعد ابن حمدين من أجل علماء الأندلس في ميدان الفقه والأدب تولى قضاء الجماعة للمرازيق عام 1496 هـ إلى أن توفي. وقد جالس عياض كثيراً وسمع عليه الموظفو برواية يحيى بن يحيى الليثي (5).

(1) محمد بن تاويت، مقدمة كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسائل لعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، وزارة الأوقاف المغرب، الرباط، 1983، ص 149.
(2) عياض: الغنية، ص 15، 26، 172.
(3) المصدر السابق، ص 11.
(4) محمد بن عياض: مصدر سابق، ص 10.
(5) عياض: الغنية، ص 49، 56، المقرئ: ازهار الرباط، ج 34، ص 96 وما بعدها.
كما التقي عياض بأبي الوليد القرطبي، هشام بن أحمد الفقيه المتوفي عام 1115 هـ، وهو أحد كبار فقهاء هذه المدينة ومقيماً وقرأ عليه عياض في داره العديد من المؤلفات الفقهية (1).

ومن أكبر علماء قرطبة أبى محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامى المتوفي عام 520 هـ، وجلس إليه عياض للسمع منه لعلو سنه وصربه على الجلوس والإسماع آناء ليلة وأطراف نهاره، وقرأ عليه عياض الكثير من كتب الفقه والحديث (2). ومن صحبه وسمع منهم كثيراً عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم الأومر القرطبي المتوفي عام 519 هـ (3). كما التقي عياض في قرطبة بالنقيب الحافظ أبى بكر غالب ابن عطية المحاربي المتوفي عام 518 هـ (4).

أما الفقيه الراوي سفيان بن العاصي بن أحمد بن العاصي المتوفي عام 1126 هـ، فقد نشأ ببنفسية ولقبه عياض في قرطبة وقرأ عليه كتاب «سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن هشام»، بالإضافة إلى كتب الحديث مثل كتاب «صحيح مسلم» (5).

كما التقي عياض بعض علماء الحديث في قرطبة، منهم ابن الحاج محمد ابن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى المتوفي عام 529 هـ، والذي كان كثير الرواية، ولذلك قرأ عليه عياض بعض كتب الحديث في داره، وحصل منه على إجازة جميع رواياته (6) كما سمع عياض بعض كتب الحديث وعلومه من الفقيه الحاكم أبى القاسم أحمد بن محمد بن مخلد المتوفي عام 532 هـ (7).

(1) عياض: مصدر سابق، ص 317.
(2) عياض: مصدر سابق، ص 162 وما بعدها، ابن فرحون: مصدر سابق، ج 1، ص 479.
(3) عياض: مصدر سابق، ص 166، 167.
(4) المصدر السابق، ص 190.
(5) المصدر السابق، ص 205.
(6) المصدر السابق، ص 48، 47، ابن الآبار: المجمع، ص 123.
(7) المصدر السابق، ص 47.
1137هـ (11) والتقي عياض أيضاً في قرطبة مع أبي جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز الخزرجي المقرئ المتوفى عام 538هـ /1137م والذي كان يفهم علم الحديث وروى منه الكثير، ولذلك صحبه عياض وقرأ عليه بعض حديثه (2). وحين التقي عياض في قرطبة بالشيخ يونس بن محمد بن مغتي الفقيه أابي الحسن المتوفى عام 537هـ /1136م قرأ عليه العديد من كتب الحديث مثل كتاب الأربعين حديثاً للأخرى، وغير ذلك من المؤلفات (3).

وسمع عياض في قرطبة كتب الأصول والعقائد والفرائض من بعض علمائها، منهم الفقيه القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المتوفى عام 520هـ /1126م والذي كان زعيمًا فقيهاً وقته، بصيراً بالأصول ويقول عنه عياض: "جالسته كثيراً وساءلتته واستفدت منه وسمعت بعض كتبه تقرأ عليه، وناولني بعضها، وأجازتي سائر رواياته" (4)، ومنهم أحمد الزنكي أبو العباس، الذي يعد من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة في وقته، ولذلك جالسه عياض وسألته للاستفادة منه (5).

والنقي عياض في قرطبة بعدد من شيوخ القراء منهم أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجي المقرئ المتوفى عام 511هـ /1117م والذي كان يقوم بالإقراء بجامع قرطبة (6). ومنهم الخطيب المقرئ خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد زعيم المقرئين بقرطبة المتوفى عام 511هـ /1117م ولذلك كانت رحلة

(1) عياض: الغنية، ص 97،98.
(2) المصدر السابق، ص 109.
(3) المصدر السابق، ص 379.
(4) المصدر السابق، ص 326.
(5) عياض: المصدر السابق، ص 116.
(6) المصدر السابق، ص 118،119، ابن الجزيري: غيابته النهائية في طبقات القراء، عريون بن شهير، برجشان، في الكتب العلمية، بيروت، 1982، ج 1، ص 66.
عياض إليه حيث قرأ عليه بعض كتب القراءات والتفسير والفقه. ٦) ومن المقرنين الذين تتقاسم أيضاً عبد الرحمن بن سعيد بن هارون الفهمي المقرئ المتوفى سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م وكان من مدينة سرسطة ثم رحل إلى قرطبة، ونها حدث عياضاً وأجازه جميع رواياته ٧).


١١) أخيراً التقى عياض في قرطبة ببعض العلماء لكنه يذكر أنه لم يسمع منهم مثل عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن مخلد القرطبي الحاكم المتوفى عام ٥١٥.

٢٩٩ - ٣٧٦
هـ / 1121 م (1) والحقيقة، عبد العزيز بن عبد الله بن محمد، أبو الأصبع
القرطبي المتوفى عام 1144 هـ / 5 هـ (2).

تنقل عياض بين مدن الأندلس للقاء العلماء، فالمدن غرب الأندلس التي زارها مدينة إشبيلية فاتجه فيها بالشيخ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني المتوفى عام 508 هـ / 1114 م والذي حددته الموطأ، كما أجازه جميع رواياته (3) أما الشيخ الصوفي محمد بن خمس فبعد من أهل غرب الأندلس وكان ملازمًا بإشبيلية وأجاز عياضاً كتاب الرعأة للحارث المحاسبي (4) كما صحب عياض فترة وقوده في إشبيلية القاضى محمد بن داود بن عطية العكسي القلعي المتوفى عام 546 هـ / 1150 م ودرس عليه أصول الفقه (5). ومن الناحية الذين تتقاه عياض على بن عبد الرحمن بن محمد التنوخي المتوفى عام 516 هـ / 1120 م فسمع منه كتاب شرح الأشعار الستة لأبي الحجاج يوسف ابن الأعلم (6).

وامنتل رحلة القاضي عياض إلى بعض مدن شرق الأندلس للقاء العلماء. ففي مدينة سرقسطة التقى بأهل شيوخ الأندلس عامة وهو القاضي الحافظ أبي على الخضين بن محمد بن فيره بن حبيب الصدفي المتوفى عام 514 هـ / 1120 م والذي اتسعت روايته، وبلغ عدد الكتب التي سمعها عليه عياض ستة وعشرين كتابًا شملت الحديث وعلومه والسيرة والتاريخ (7) وفي نفس هذه المدينة جلس عياض كثيرًا مع الشيخ الفقيه محمد بن عقاب، وسمع عنه الكثير (8).

(1) عياض: مصدر سابق، ص 129.
(2) المصدر السابق، ص 173.
(3) المصدر السابق، ص 166.
(4) المصدر السابق، ص 92.
(5) المصدر السابق، ص 64.
(6) المصدر السابق، ص 177.
(7) المصدر السابق، ص 167.
(8) عياض: مصدر سابق، ص 99.
وال التقى عياض في مدينة شاطبة باثنين من علماء الحديث وسمع منهما الأول هو ابن الصيقل محمد بن علي الشاطبي و الثاني هو الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد بن أيوب الفهري المتوفى عام 530 هـ / 1135 م.

وفي مدينة بلنسية التقى بشيخ الأدباء في وقته عالم النحو واللغات والشعر والبلاغة، أبي محمد عبد الله بن محمد السيد السبزواري المتوفى عام 521 هـ / 1127 م، وحصل منه على إجازة لجميع رواياته وتصانيفه.

أما لقاء عياض بشيخ فقهاء شرق الأندلس، الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله الخشني المتوفى عام 536 هـ / 1139 م، الحافظ للمذهب، مع المعرفة بتفسير القرآن الكريم فقد كان في مدينة مرسيسة وهو اللقاء الثاني بينهما وكان الأول في إسبانيا، وقد قرأ عليه بعض كتب الحديث وحصل منه على إجازة لرواية جميع مؤلفاته.

وبعد أبناء عباس أحمد بن عثمان بن مكحول المتوفى عام 513 هـ / 1119 م، من شيوخ عياض وهو من أهل المرية Almería، حددته بعدد من الكتب مثل كتاب الشهب للقضاة وغير ذلك من المؤلفات.

كما التقى عياض أثناء رحلته العلمية إلى شرق الأندلس بالفقيه أبي بكر محمد بن خلف بن سليمان الأريولي المتوفى عام 517 هـ / 1123 م، وقد استفاد هذا الفقيه من معارف عياض، وحصل منه عياض على إجازة لمؤلفين له على كتاب الصحابة لابن عبد البر و كتاب التنبيه و كتاب الذيل.

1. عياض : مصدر سابق، ص 93، 92.
2. المصدر السابق، ص 159.
3. عياض : مصدر سابق، ص 158، السيوطي : مصدر سابق، ج 2، ص 55.
5. المصدر السابق، ص 81، ابن الأبار : المعجم، ص 114.
6. المصدر السابق، ص 101.
7. المصدر السابق، ص 114.
ومن علماء لورقة Lorca 11 التقي عياض بالوزير أحمد بن سعيد بن خالد
اللخمي المتوفى عام 516 هـ / 1126 م والذي أجازه جميع رواياته ، من ذلك :
كتاب اختلاف الموتى للدار قطني وغيرها (2).

كما حصل عياض من بعض علماء الأندلس على العديد من الإجازات العلمية التي تسنح له برواية العلم عنهم ، على الرغم من أنه لم يلتق بهم . فقد
كتبوا له بالسماح برواية علمهم ، منهم الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد
الرحمن بن على المتوفى عام 509 هـ / 1114 م والذي كتب لعياض من إشبيلية
يجيده جميع رواياته (3) . ومن نفس المدينة أجازه أيضاً الشيخ المقرئين في وقته
القاضي القرئ شريح بن محمد بن شريح الرعيني المتوفى عام 539 هـ / 1144
م (4).

ومن مدينة سرقسطة كتب بعض علمائها إلى عياض يجيئونه جميع رواياتهم
منهم أبو عبد الله محمد بن الفرج (5) ، وخلف بن خلف بن محمد الأنصاري
المتوفى عام 508 هـ / 1114 م (6) ، والشيخ الصالح عبد الرحمن بن عبد الله
السربطي المتوفى عام 515 هـ / 1121 م (7).

كما كتب الشيخ الخاض أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني المعروف
بالجاحية المتوفى عام 498 هـ / 1104 م من قرطبة إلى عياض يجيئه جميع
رواياته (8) . وأيضاً أجازه الشيخ الصالح أبو الحسن خليصي بن عبد الله بن

(1) لورقة بالأندلس بينها وبين مرسية أربعون ميلا ، وهي من المعاقل الحصينة وتقع على ظهر جبل وبها
أسوار ورخاء ، نظر : الخبيري : مصدر سابق : ص 512.
(2) عياض : مصدر سابق : ص 99.
(3) المصدر السابق : ص 75.
(5) عياض : مصدر سابق : ص 89.
(6) المصدر السابق : ص 148.
(7) المصدر السابق : ص 167.
(8) المصدر السابق : ص 138 ، ابن هرجون : مصدر سابق : ج 1 ، ص 332 ، 333.
احمد العبدري ساكن بلنسية المتوفى عام 513 هـ / 1119 م (1) وأخيراً كتب إليه
من مدينة شاطية يجيزه جميع رواياته الشيخ أبو عامر محمد ابن حبيب بن عبد
الله الأموي المتوفى عام 538 هـ / 1134 م (2).

هكذا كان لبلاد الأندلس بنديها المختلفة وعلمائها الكثيرون الذين التحق بهم
القاضي عياض، أثر كبير في تكوين شخصيته العلمية في كافة نواحي العلم
والعرفة. وإذا كانت انتهينا من الحديث عن المصدر الأول والثاني من مصادر
تكوين شخصية القاضي عياض العلمية، فقد حان الوقت للحديث عن المصدر
الثالث والأخير وهو المشرق الإسلامي.

المصدر الثالث لثقافة القاضي عياض هو المشرق الإسلامي والجدير بالذكر أن
عياضاً لم يرحل إلى بلاد المشرق الإسلامي لكنه تأثر بعلومه ومعارفه بواسطة
شيوخه من الأندلسيين الذين رحلوا للمشرق، كما يتضح من نراحتهم التي وردت
في فهرس شيوخ القاضي عياض، كما نهل من ثقافة المشرق بواسطة المشارقة
أنفسهم الذين كتبوا إليه يجيزونه مؤلفاتهم ورواياتهم.

فمن مصر كتب عدد من العلماء يجيزون القاضي عياض رواياتهم، منهم
الأمام أبو بكر محمد بن الويلد بن محمد بن خلف الفهري المعروف بالطرطوشي
وبمنا أصله. وقد تفقه هذا العالم في الأندلس والمشرق واستوطن الإسكندرية
وبها توفي عام 526 هـ / 1131 م بعد أن كان قد ألف مؤلفات عديدة في
مسائل الخلاف وأصول الفقه، ويدرك القاضي عياض أن هذا العالم أجازه جميع
رواياته وتصانيفه (3). كما أجازه أيضاً من مصر أحد رواياته ومسندوها وهو
محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الرازي المعروف بابن الخطاب المتوفى عام

(1) عياض: مصدر سابق، ص 150.
(2) المصدر السابق، ص 81.
(3) عياض: مصدر سابق، ص 62 - 64، ابن خلكان: مصدر سابق، ج 4، ص 292.
525 هـ / 1130 م (1) . هذا بالإضافة إلى أبي عبد الله محمد بن المسلم بن محمد بن أبي بكر القرشي المخزومي الصقلي ساكن الإسكندرية والذي كان متقدماً في علم الكلام، وصنف فيه كتاب «البيان بشرح البرهان» وأجازه عياضاً مع غيره من الروايات (2) ومن أجازه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني نبيل الإسكندرية والذي يعد من علماء الحديث (3) . كما كتب الشيخ المسند علي بن المشرف بن المسلم، أبو الحسن السكندرى المتوفر في عام 519 هـ / 1125 م إلى عياض يجيزه جميع رواياته (4) .

كما حصل عياض على إجازات علمية من علماء مكة الكبرى، منهم الشيخ أحمد بن خليفة بن قاسم بن منصور الملكي الذي أجازه كتاب البخاري (5) . أما الشيخ أبو سعيد حيدر بن يحيى بن حيدر الجيلب الصوفي المجاور بكة المنموذج عام 530 هـ / 1135 م فقد أجازه جميع رواياته (6) ، ومنهم الإمام عبد الرحمن بن عبد الصمد النيسابوري الذي جاور بكة بعد عام 516 هـ / 1121 م ومنها كتب يجيز عياضًا جميع رواياته (7) . وأخيراً أجازه الشيخ المقرئ على بن أبي القاسم بن محمد المهدي، وهو من علماء القراءات سكن مكة ومنها كتب إلى عياض يجيزه كتاب الجمع الكبير في القراءات وهو كتاب من تأليف أبي معشر الطبري (8) .

(1) عياض: مصدر سابق، ص 83 .
(2) المصدر السابق، ص 88 .
(3) المصدر السابق، ص 92 .
(4) المصدر السابق، ص 178 .
(5) المصدر السابق، ص 179 .
(6) المصدر السابق، ص 143 .
(7) المصدر السابق، ص 169 .
(8) المصدر السابق، ص 183 .
ومن مدينة بغداد كتب عبد الواحد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن
يوسف البغدادي الفهري إلى عياض يحيى جمع رواياته وذلك سنة 517 ه / 1134 م (1). كما كتب عبد الملك بن أبي مسلم بن أبي نصر الهمداني إلى
عياض يحيى جمع رواياته ، من ذلك كتاب الجمع بين الصحيحين تأليف أبي
عبد الله محمد بن أبي نصر الحمدي (2).
هكذا نهل عياض من ثقافة الشرق الإسلامي من خلال الإجازات العلمية
التي حصل عليها من علماء مصر ومكة المكرمة وبغداد وهمدان ، بالإضافة إلى
من وفد إلى سبطة من علماء المشرق وأخذ عنهم القاضي عياض وسبق الحديث
عنهم في المصدر الأول لثقافته.
خامسًا - البيئة التعليمية :
كان للعدد الكبير من العلماء الذين التقى بهم القاضي عياض بن موسى أثر
كبير في أن يطلع على العديد من المؤلفات العلمية في كافة مجالات العلوم
الشرعية وعلوم اللغة العربية بالإضافة إلى كتب السيرة والتصوف والتراجم .
وتلقى هذه المؤلفات الضوء على الكتب التي شاع تدريسها في ذلك الوقت والتي
كانت تتمثل الوعاء الفكري والثقافي للأمة الإسلامية آنذاك .
1 - في مجال العلوم الشرعية :
(أ) القرآن الكريم وعلومه :
بدأ عياض قراءة القرآن الكريم وعلومه في مدينة سبطة على العديد من
القراء من أبنائها أو من وفدوا عليها ، منهم الشيخ المقرئ محمد بن عبد الله
المعروف بالمروري المتوفى في ححدود 505 ه / 1106 م والذي تصدر لقراء

(1) المصدر السابق ، ص 120.
(2) المصدر السابق ، ص 122.
القرآن الكريم بهذه المدينة طوال عمره، وكان عالماً بالقراءات واختلاف القراء، ولذلك قرأ عليه عياض القرآن الكريم و끼مه عدة مرات(1). كما قرأ القرآن الكريم برواية نافع(2) وأبين كثير(3) وأبين عمار(4). وأبين عمو الداني(5) على الشيخ المقرئ عبد الله بن إدريس بن سهل المطوفي بسبيت عام 515 هـ / 1161 م(6).

ورقاً عياض أيضاً في بلده كتاب «الهدامة في القراءات السبع» من تأليف أبي العباس أحمد بن عمار المهدي المطوفي بعد عام 330 هـ / 1338 م، وكانت القراءة على الشيخ المقرئ محمد بن أحمد الأموي(7). وقد قرأ عياض هذا الكتاب أيضاً على القارييين سليمان النفيزي المطوفي عام 525 هـ / 1130 م(8).

كما قرأ عياض علم القراءات على من وفد إلى سبتي من قراء الأندلس، منهم شيخ المقرئين أبو الحسن على بن محمد بن دروي الأنصاري المطوفي عام 540 هـ / 1146 م والذي قرأ عليه القرآن الكريم برواية ابن عمار، وحين التقى به عياض اثناء رحلته للأندلس قرأ عليه كتابه في «مخارج الحروف» (9).

(1) عياض : مصدر سابق، ص 90، ابن الأبار : الكتبة ج 1، ص 408.
(2) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي تعيش، أصله من أصبهان، أخذ القراءة من جماعة من تابعي أهل المدينة، وذلك كان عالماً بوجه القراءات، توفي عام 199 هـ / 786 م، آثاره : ابن الجزيزي، مصدر سابق، ج 2، ص 349-434.
(3) ابن كثير هو عبد الله بن كثير بن المطلب القرشي من بني عبد الدار، ولد بمكة سنة 45 ه ولقى عبد الله بن الزبير وأبي أيوب الأنصاري، من أمه القراء حتى مات سنة 128 ه / 748 م، آثاره : ابن الجزيزي، مصدر سابق، ج 1، ص 445-448.
(4) ابن عمار هو عبد الله بن عمار بن زييد بن قيم البحصي، إمام أهل الشام في القراءات، توفي عام 118 ه / 736 م، آثاره : ابن الجزيزي، مصدر سابق، ج 1، ص 425-427.
(5) أبو عمرو الداني هو عثمان بن سعيد الأموي، الشيخ مشايخ المقرئين (371-444 هـ)، له مؤلفات جلية في القراءات، عنه آثاره : ابن الجزيزي، مصدر سابق، ج 1، ص 505-521.
(6) عياض : مصدر سابق، ص 158، ابن الأبار : المجمع، ص 311.
(7) عياض : المجلد، ص 91.
(8) المصدر السابق، ص 59 - 61.
(9) المصدر السابق، ص 176، السويري، مصدر سابق، ج 2، ص 187.
وقرأ أيضاً عياض في بلده على أبي الأصغع عيسى بن محمد بن عبد الله الزهري المتوفى عام 530 هـ / 1135 م كتاب «معاني القرآن» له سماعاً منه، بالإضافة إلى كتاب «الوقال والابتداء» تأليف ابن النحاس، أحمد بن محمد بن إسحاق الحافظ القرئي المتوفي 338 هـ / 949 م. 

كما قرأ على محمد بن عبد الرحمن بن سعيد النحوى القرئي القرطبي المتوفى عام 505 هـ / 1111 م والذي كان يدرس القراءات.

ومن أثناء رحلة عياض إلى الأندلس التقى بالمئات من علماء القراءات الذين قرأ عليهم وأجازهم. منهم أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجي القرئي القرطبي المتوفى عام 511 هـ / 1117 م وهو أحد شيوخ القراء المتخصصين للإقراء بجامع قرطبة الأعلي السند. وحين التقى في قرطبة بالشيخ القرئي محمد بن سليمان النفيذي المتوفى عام 535 هـ / 1140 م حدثه بكتاب «التحكيم لأقوال الناس في التفسير» وفي نفس المدينة أيضاً قرأ كتاب «المفتاح في القراءات» من تأليف ابن عبد الوهاب على الشيخ أبي الويلد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف المتوفى عام 526 هـ / 1133 م.

واستفاد عياض من لقاء أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخولاني المتوفى عام 880 هـ / 1474 م حين التقى به في مدينة إشبيلية، فقد أجازه جميع روائه منها ما أجازه أبو عمر الداني الذي ألف العديد من كتب القراءات، منها كتاب جامع البيان في القراءات السبع وكتاب التيسير وكتاب المحتوى في القراءات الشواذ.

(1) ابن بشكوال: الصلة، ج 2 ص 441، عياض: مصدر سابق، ص 183، 184.
(2) عياض: مصدر سابق، ص 89.
(3) عياض: مصدر سابق، ص 118، 117، ابن بشكوال: مصدر سابق، ج 1، ص 741.
(4) عياض: مصدر سابق، ص 59 - 61، المقرئ: نفح الطيب، ج 3، ص 397.
(5) عياض: مصدر سابق، ص 105 - 106.
(6) المصدر الصحيح، ص 116.
(7) ابن الجزري: مصدر سابق، ج 1، ص 505.
كما أجاز على بن أبي القاسم بن محمد المهدوي الذي سكن مكة عياض بن موسى كتاب "الجامع الكبير في القراءات"، وكتاب "التأليف في القراءات" تأليف أبي معشر الطبرى عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد المجاور بمكة، وبها توفى عام 48 هـ/1065م.

كما التقى عياض في قرطبة بعدن من القراء المفسرين، منهم الخطيب المقرئ المفسر خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد المعروف بابن النحاس المتوفي عام 511 هـ/1117م، وقد حدثه "تفسير النقاش" (2) المسمى "بشفاء الصدور" بالسناد المتصل حتى النقاش. (3) وفي نفس المدينة قرأ على الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامي المتوفي عام 520 هـ/1126م تفسير عبد الرزاق الصنعاني (4) سماعًا لبعضه وأجازه لما فاته منه، وذلك بالسناد المتصل حتى المؤلف (5).

كما أجاز الشيخ المجاور بمكة أبو سعيد حيدر بن يحيى بن حيدر الجيلو الصوفي عياضًا كتاب "تفسير الثعالبي" لمؤلفه أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبي النسبوري المتوفي عام 427 هـ/1035م) وقد ألف الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف المعروف بالطرطوشي اختصارًا لتفسير الثعالبي لقرآن الكريم (6).

---
(1) عياض : مصدر ساق، ص 183.
(2) النقالق هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد الموصلي المتوفي عام 513هـ، عنه أنظر: الداروذي: طبقات المفسرين، تحقيق عبد السلام عبد العين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص 391.
(3) عياض : مصدر ساق، ص 148.
(4) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصناعي صاحب التفسير المتوفي عام 711هـ/1311م، أنظر: الداروذي: مصدر ساق، ص 209.
(5) عياض : مصدر ساق، ص 163.
(6) المصدر السابق، ص 143.
(7) عياض: الغنية، ص 142.
ومن علوم القرآن الكريم التي أطلع عليها عياض علم الناسخ والمنسوخ (1).
فقد سمع عياض من شيخة الحافظ أبي علي الحسين الصدفي كتاب "الناسخ والمنسوخ" تأليف هبة الله سلامة بن نصر بن على البغدادي المتوفى عام 410 هـ / 1019 م، سمعه منه بالسند المتصل حتى مؤلفه (2). كما قرأ عياض كتابة بنفس هذا العنوان على الفقيه أبي محمد عبد الرحمن بن عتاب الخدامي وهو كتاب من تأليف أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المقرئ المتوفى عام 407 هـ / 1016 م (3).
لقد أسهمت الكتب التي أطلع عليها القاضي عياض في القرآن الكريم وعلومه في أن يكون من الأعمال في علم القراءات والتنسيس وعلم الناسخ والمنسوخ.

(ب) الحديث وعلومه:
وكتب قيام دولة المرابطين زهدار دراسة علم الحديث نتيجة لظهور عدد كبير من أعلام الحديث الذين كان لهم عناية كبيرة بالحديث النبوي مكرمة للسنة النبوية. وقد أسهم هؤلاء الحديثين الذين التقى بهم عياض في سبعة أو أربعة رحلته إلى الأندلس، في تفوّقه في هذا العلم رواية ودراية بشكل لفت إليه.

(1) النسخ في اللغة هو رفع شىء إقامة آخر مقامة، أما النسخ في القرآن الكريم فهو إبطال الحكم، وتكون الآية النسخة والمنسوخة ثابتتين في القول فإلا أن المنسوخة لا تعمل بها، مشاهد لذلك كانت عدة المروى عنها زوجة سنة كما في الآية 240 من سورة البقرة (athon متاعا إلى الحول غير إرجاع) (1). ورغم نسخت هذه الآية بأربع أذرع وشرع كما في الآية 240 من سورة البقرة (34 يترجم بأربع أذرع ربعا، 34) وهذا العلم يساعد على التعرف على أحكام الشريعة والعمل بها، هو علم يراجع على العلماء والمتعلمين، وعلى كافة المسلمين، لأن الأخذ بالمنسوخه راجب فرض، والعمل به راجب لازم، والمنسوخ لا يعمل به، أظهر: دراسة الأسئلة عبد الكبير العلي المكرزي كتاب الناسخ والمنسوخ للفقيه أبي بكر بن العربي المغربي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1992، ج1، ص194، ص195.
(2) عياض: مصدر سابق، ص 29 وما بعدها.
(3) المصدر السابق، ص 162.
الأنظار، حتى أصبح من أئمة الحديث في وقته (1) وأعرف الناس بعلمه (2) ولذلك قال على الذهب: إنه عالم المغرب الحافظ (3). بدأت دراسة عياض للحديث وعلم فقه وعلم حديث في مدينة سبأ، وفي أثناء رحلته إلى الأندلس استكمال دراسته لهذه العلم، واهتم بدراسة علم الحديث دراية، وهو علم يبحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث. فقرأ كتب الصحابة وكتب الصحابة وغيرها مما سنعرض له.

ومن أجل شيوخه في هذا العلم الفاضل أبو عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التيميمي المتوفى عام 505 هـ / 1111 م، وقد لازمه عياس لسماع المصادر في علم الحديث سواء كانت بقراءته أو قراءة غيره. ومن أهم هذه المصادر: كتاب «المستند الصحيح المختصر» تأليف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى عام 526 هـ / 1132 م (4)، وقد أجاز عيضا هذا الكتاب الحافظ أبو علي الحسين الصنفي المتوفى عام 514 هـ / 1120 م (5)، والفقيه أبو محمد بن عبد الرحمن الجذامي المعروف بابن عتاب المتوفى 520 هـ / 1126 م (6)، وأخيراً أحمد بن خليفة بن قاسم بن منصور الخزاعي المكي (7). أما كتاب «المستند الصحيح المختصر من السنن» لأبي الحسين مسلم اليسابوري المتوفى عام 567 هـ / 1172 م فقد قرأه عياس وسمعه أيضاً على غير واحد من شيوخه، منهم شيخه السيستي محمد بن عيسى بن حسين التيميمي، والحاكم أبو بأبي علي الحسين الصنفي الذي قرأ عليه عياس هذا الكتاب في جامع مرسية

(1) ابن فرحون: الدبيبة، ص 47.
(2) ابن تكلان: مصدر سابق، ص 483.
(3) سير أعلام النبلاء، تحقيق شبيب الأزهري، مؤسسة الرشالة، بيروت 1996، ص 212.
(4) عياس: مصدر سابق، ص 141، ابن الآبار: المجمع، ص 81.
(5) عياس: مصدر سابق، ص 32.
(6) المصدر السابق، ص 162.
(7) المصدر السابق، ص 115.
سنة 508 هـ / 1114 ق (1) كما قرأ على الفقيه أبي محمد بن أبي جعفر الخنشلى (2) والفقيه أبي بحر سفيان بن العاصي بقرطة عام 57 هـ / 1113 ق (3). أما كتاب "المعلم في شرح مسلم" فقد حصل على الإجازة بروايته من إمام إفريقيي أبي عبد الله محمد بن عمر بن علي المازري المتوفى عام 536 هـ / 1141 ق (4).

كما كتب الإمام أبو نصر عبد الملك بن أبي مسلم الهمداني إلى عييض يجيبه كتاب "الجمع بين الصحيحين" تأليف أبي عبد الله بن أبي نصر الحمديي المتوفى عام 488 هـ / 1094 ق (5).

وسعم عييض كتاب "السنن" لأبي داود سليمان بن الآشعت السجستاني المتوفى عام 767 هـ / 1658 م على الفقيه أبي عبد الله التميمي (6). وعلى أبي الوالد هشام بن أحمد المتوفى عام 50 هـ / 115 م فلى دارا بجزيرة قرطبة بالسند المتصل حتى المؤلف (7). كما كتب الشيخ الحافظ أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني المعروف بالجياني المتوفى عام 498 هـ / 1104 م إلى عييض يجيبه هذا الكتاب (8)، وقابل عييض كتابة بأصل الجياني (9).

كما قرأ على "الجامع" لأبي عبيدة الترمذي على القاضي الحافظ أبي علي الحسين الصدفي (10). أما كتاب "السنن" لأبي عبد الرحمن...
النسائي فقد قرأ عياض على أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب المتوفر
عام 52 هـ / 1126 م (1).

ويعد كتاب « موطأ الإمام مالك » من كتب السنة التي أطلع عليها عياض
في المرحلة التعليمية من حياته. وقد سمع الموقوف برواية يحيى بن يحيى الليثي
من الفقيه السيتي أبي عبد الله محمد بن نسيم الطيمي، وسمعه أيضاً بهذه
الرواية على جمعة من شيوخه، منهم الشيخ الفقيه ابن عتاب، كما قرأ هذا
الكتاب وسمعه بقراءة غيره على الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن جعفر اللواتي,
و على الفقيه القرطبي القاضي ابن حمدين، والفقيه أبي بحر سفيان بن العاصي
الأسدي، والشيخ أحمد بن محمد الحولاني. أما الشيخ أبي على الحسين بن
محمد الغسانى الجبانى فقد كتب له يجيزة رواية هذا الكتاب (2).

كما أطلع عياض على الكتب التي ألّف في الموطأ، منها كتاب « الملاخص
لمسند الموطأ » تأليف أبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي المتوفر سنة
349 هـ / 1064 م. وقد قرأ عياض هذا الكتاب على شيخه أبي عبد الله
الطيمي السيتي، وعلى الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن جعفر ابن أحمد اللواتي,
و على الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الطيمي (3)، وإجازة من الحافظ أبي
على الحسين المعروف بالجبانى (4).

كما أجازه أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي المتوفر عام
531 هـ / 1137 م كتابه الذي ألفه في شرح الموطأ والسمى « بالمقتبس » (5).
وقرأ على شيخه أبي عبد الله محمد بن عيسى بن حسين الطيمي كتاب

(1) عياض: مصدر سابق، ص 158.
(2) المصدر السابق، صفحات 29، 46، 116، 139، 142، 159، 161، 172.
(3) المصدر السابق، صفحات 42، 119، 162.
(4) المصدر السابق، ص 139.
(5) المصدر السابق، ص 158.
النقدسي مسندر الموطأ» تأليف أبي عمر عبد البر، وكتاب «مسند الموطأ للجوهري (1) وقرأ أيضاً كتاب «اختلاف الوطائط» للدار قطني بالسندة المتصل حتى المؤلف، إجازة من الوزير أبي جعفر أحمد بن سعيد ابن خالد اللخمي المتوفى سنة 516 هـ / 1122 م (2).

ومن أهم كتب الحديث التي سمعها عياس كتاب «السنن» للدار قطني، سمعه من أبي على الصدفاني بالسندة المتصل حتى مؤلفه (3) وسمعه أيضاً من التاجر المقدسي أبي نقشش على بن أحمد بن على البغوي المتوفى عام 531 هـ / 1136 م (4) أما كتاب «جامع عبد الله بن وهب» فقد سمعه عياس بالسندة المتصل حتى المؤلف من الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد التميمي السبتي المتوفى عام 150 هـ / 767 م (5).

وتتعدد كتب الحديث التي سمعها عياس، منها كتاب «الأخبار عن فوائد الأخبار» تأليف محمد بن إبراهيم بن يعقوب بن اسحاق، وهذا الكتاب شرح لمائة وثلاثين حديثاً (6). وكتاب «الدلائل في الحديث» تأليف أبي محمد بن قاسم بن ثابت السرقسطي المتوفى عام 314 هـ / 914 م قراءة على الوزير سراج بن عبد الملك الأموي الحافظ (7).

كما سمع عياس من أبي العباس أحمد بن عثمان بن مكحول المتوفى عام 1119 هـ / 513 م كتاب «الشهاب»، وهو «شهاب الأخبار في الحكم» (8).

(1) المصدر السابق، ص 43.
(2) المصدر السابق، ص 99.
(3) المصدر السابق، ص 135.
(4) المصدر السابق، ص 181.
(5) المصدر السابق، ص 163.
(6) المصدر السابق، ص 159.
(7) المصدر السابق، ص 202.
(8) المصدر السابق، ص 64.
والعامتان والأدب من الأحاديث النبوية، تأليف القضاعي (1)، وهو محمد بن
سلامة بن جعفر بن علي القضاعي الشاطبي المتوفى عام 464 هـ / 1072 م.
وقد جمع هذا الكتاب من أحاديث الرسول ألف كلمة في الحكم والوصايا والأداب
والمواعظ والأدب. وسمع عياض هذا الكتاب على الشيخ الحافظ أبي علي
الصديق، وعلى الفقيه أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الخشنى (2).
كما أجاز الشيخ أبو سعيد حيدر بن يحيى الجيلى الصوفي عياضًا «شرح كتاب
الشهاب» للقضاعي لشرحه أبي القاسم بن إبراهيم الوراق (3).
ورقاً أيضاً من كتاب الحديث كتاب «الانتصار في حدث رسول الله صلى الله
عليه وسلم» تأليف الأصيلى، وهو عبد الله بن إبراهيم الأندلسى المتوفى
392 هـ / 1110 م. وكتاب «فضل عاشوراء» جميع أبي ذر، قراءة على الفقيه أبي
اسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتى (4).
ورقاً عياض عدة كتاب آخر في الحديث بعنوان «الأربعين حديثاً»، الأول
تأليف أبي نعيم الأصباهى المتوفى عام 430 هـ / 1038 م. والكتاب الثاني
تأليف الحسن بن سفيان، وهذا الكتبان تأليفهما عياض بالسند المتصل حتى
المؤلف على شيخه الحافظ أبي علي الصدفي (5). كما سمع كتابا ثالثاً بهذا
العنوان من تأليف الأحمر، وهو أبو بكر محمد بن الحسن المتوفى عام 369 هـ
/ 977 م. سمعه عياض من الفقيه أحمد بن محمد بن مخلد بن بقى القرطبي
المتوفى عام 532 هـ / 1147 م (6) وقرأه على كل من الفقيه أبي اسحاق إبراهيم
بن جعفر بن أحمد اللواتي المتوفى عام 513 هـ / 1119 م (7) والفقه يوسي بن

(1) المصدر السابق، ص 1.
(2) المصدر السابق، ص 131.
(3) المصدر السابق، ص 156.
(4) المصدر السابق، ص 146.
(5) عياض: مصدر سابق، ص 98.
(6) المصدر السابق، ص 136.
(7) المصدر السابق، ص 126.
محمد بن مغيث القرطبي المتوفى عام 532 هـ / 1137 م. أما الكتاب الرابع والأخير تأليف الخاكم أبي عبد الله، فقد سمعه من الشيخ التاجر سهل بن علي بن عثمان النيسابوري المتوفى عام 536 هـ / 1136 م حين اجتهذ سنة وأقام بها مدة من الزمن (2).

أما الكتب التي تناولت غريب الحديث، أي تذكر الأحاديث التي لها سنن واحد فقط، فقد قرأ عياض العديد منها، مثل كتاب "شرح غريب الحديث" تأليف أبي عبيد القاسم بن سلام. قرأ في سنن على القاضي أبي عبد الله الشمسي، وأيضاً على الفقيه أبي اسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي (3).

كما قرأ عياض في مدينة قرطبة كتابين بعنوان "غريب الحديث"، الأول من تأليف المحدث أبي سليمان بن أحمد بن محمد الخطابي المتوفى عام 388 هـ / 998 م، قراءة على الوزير سراج بن عبد الملك بن سراج الأمور الحافظ (4).

والكتاب الثاني من تأليف محمد بن قدسيمة المتوفى عام 776 هـ / 1374 م، قراءة على الفقيه القرطبي المعروف بابن الجاح المتوفى عام 539 هـ / 1144 م وإجازة من الشيخ الحافظ المعروف بالجشياني (5). وقرأ عياض أيضاً "كتاب الغربيين" أي غريب الحديث، تأليف أبي عبيد أحمد بن محمد بن أبي عبيد الهروي، قراءة على الوزير سراج بن عبد الملك الأموري (6).

وأخيراً قرأ عياض في غريب الحديث كتاب "إصلاح الفلفط على أبي عبيد" تأليف أبو محمد بن قتيبة، قراءة بالسند المتصل حتى المؤلف، على قاضي سنة أبي عبد الله (7).

---
(1) المصدر السابق، ص 246.
(2) المصدر السابق، ص 29.
(3) المصدر السابق، ص 38، ص 119.
(4) المصدر السابق، ص 139.
(5) المصدر السابق، ص 48.
(6) المصدر السابق، ص 139.
(7) المصدر السابق، ص 52.
التصميقي (١)، وعلى الحافظ أبي العباس أحمد بن عمران الأنصاري الطليطي (٢).

وإذا كان عياض درس علم الحديث دراية فقد درسه رواية أيضاً، وهو علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول صلى الله عليه وسلم، من حيث أحوال رواتها، ومن حيث كيفية السند اتصالا وانقطاعا، واشتهر هذا العلم بالأصول الحديث ومن أشهر تلك الكتب كتاب "التاريخ الكبير" البخاري.

وقد قرأ عياض هذا الكتاب بالسند المتصل حتى المؤلف على القاضي الحافظ أبي على الصدقي (٣). وقرأ أيضاً عياض على الناظر الصدفي كتاب "أسامى شيوخ البخاري" الذين روى عنهم في صحيحه، والكتاب جمع أبي أحمد بن علي (٤).

وفي علم الحديث رواية سمع عياض أيضاً من أحمد بن طاهر بن علي بن شبير الأنصاري المتوفي عام ١٢٦ هـ / ١٢٦٢ م فوائد منها تصانيفه في الحديث، وهي كتاب "رجال مسلم" (٥). كما قرأ على القاضي السبتي أبي عبد الله التمييمي عدد من الكتب في هذا العلم، منها كتاب "الطبقات لسلم" وكتاب "الطبقات للنسائي"، وكتاب "الضعفاء والمشروكون" للمؤلف الأخير (٦).

(1) المصدر السابق، ص 39.
(2) المصدر السابق، ص 116.
(3) المصدر السابق، ص 136.
(4) المصدر السابق، ص 132.
(5) المصدر السابق، ص 118.
(6) المصدر السابق، ص 40, 41.
كما أجاز الحافظ أبو علي الحسين المعروف بالجعاني عياضا كتابه الذي ألفه على الصحيحين المسمى "تقيد المهم وقييز المشكل" وهو في أسماء رجال الصحيحين.(1)

وسمع عياض عدداً من المؤلفات التي تناولت أساليب الحديث تأليف أبي الحسن الدارقطني، سمعها على شيخه الحافظ أبي علي الصدفی وهي الاستدراكات على البخاري و المسلم وكتاب "الالتزامات للبخاري و المسلم" وكتاب "العلل الكبير" وكتاب "المؤلف والمختلف".(2) كما قرأ عياض شرحاً للكتاب الأخير بعنوان "الإكمال في المؤلف والمختلف" تأليف الحافظ أبي نصر بن ماكولا المتوفى عام 430 هـ / 1038 م على القاضي محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري.(3)

أما كتاب "الجرح والتعديل من رواي عنه البخاري في الصحيح".(4) تأليف القاضي أبي الوليد الباجي المتوفى عام 474 هـ / 1081 م، فقد سمعه عياض على القاضي الحافظ أبي علي الصدفی في مدينة مرسية.(5) وعلى الشيخ عيسی بن محمد بن عبد الله بن عيسى الزهری في مدينة سبیة.(6)

كما أقرأ القاضي الحافظ أبي علي الصدفی عياضا ثلاثة كتب في رجال الحديث كتبان من تأليف أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ المتوفی عام 409 هـ / 1017 م، الأول يسمى "أوهام الحاكم في المدخل"، والثاني

(1) المصدر السابق ، ص 138.
(2) المصدر السابق ، ص 135.
(3) المصدر السابق ، ص 69.
(4) الجزء والتعديل أي دراسة رواية الحديث أنفسهم وترتيبهم حسب صدقاتهم وأماناتهم في النقل، وحيادهم المذهبي والسياسي; فمن عرف بكثرة، أو انتهى للفرقة السياسية أو دينية جرح ولم يقبل منه الحديث: أثر الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة 1986، ص 557.
(5) عياض: مصدر سابق ، ص 135.
(6) المصدر السابق ، ص 184.
يسمي « مشتبه النسبة » (١). والكتاب الثالث بعنوان « الهداية والإرشاد في معرفة أهل الشق و السداد الذين روى لهم الإمام البخاري » تأليف المحافظ أبي نصر أحمد بن محمد الكلابدي المتوفر عام ٣٩٨ هـ / ٤٠٦ م(٢).

وامتدت قراءات عياض إلى علوم الحديث ومشكلته، فسماح في مدينته كتاب « علوم الحديث » تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفر عام ٤٠٨ هـ / ٤١٤ م، سمعه على شيخه أبي عبد الله الناصئي. كما قرأ هذا الكتاب أيضاً على القاضي أبي عمار محمد بن أحمد بن إسماعيل الطليطلطي المحدث المتوفر عام ٥٢٣ هـ / ١٤١٩ م(٣).

أما كتاب « مشكل الحديث » للإمام أبي بكر فورك، فقد سمعه عياض بالسند المتصل إلى المؤلف من الفقيه أبي على الحسن بن عبد الأعلى الكلاعي الصفاقسي الأصل، مستوطن سبته والمتوفر عام ٥٠١ هـ / ١١٩٧ م (٤).

وهكذا أصبح عياض من أئمة وقته في الحديث، حفظ ممنه ورواه، ودرس غريبه ومشكلته، وفقهه صحيحه وضعيفه عارفاً بجميع علومه (٥).

وعلى أية حال، بد بعياض بن موسى في تفرده في علم الحديث روأه ودراسة لأعلام المحدثين الذين درس عليهم هذا العلم في العهد المرابطي. بالإضافة إلى أهم مصنفاته التي أطلع عليها. إن الاهتمام بالحديث الذي يعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي في العهد المرابطي يعتبر الرد الأكبر على اتهام عبد الواحد المراكشي للمراقبين بأنهم كانوا يهتمون فقط بفرع الفقه المالكي ويهملون الأصول من كتاب وسنه (٦). فهذا الاتهام لا أساس له من الصحة، استناداً على أعلام محمد بن عياض، ص. ٤، (٧).

(١) المصدر السابق، ص ١٣٣، ١٣٤.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٤.
(٤) المصدر السابق، ص ١٤٣.
(٥) محمد بن عياض: مصدر سابق، ص ٤.
(٦) المجمع في تلخيص أخبار الغرب، ص ٢٣٦.
المحدثين الذين التقى بهم عياض، بالإضافة إلى كتب الحديث التي درسها عياض نفسه سواء في المغرب أو الأندلس. وجد يذكر أن دراسة عياض للحديث وعلمه، قد جعلته إمام الحديث في زمنه وأعرف الناس بعلمه.

(ج) أصول الفقه:

يذكر القاضي عياض أنه درس أصول الفقه على الفقيه القاضي أبي عبد الله بن داود بن عطية بن سعيد القلعي المتوفى عام 1165 هـ / 545 م 1). كما حصل عياض من الإمام الأصولي أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر النصيمي المازري المتوفى عام 1141 هـ / 536 م على إجازة بجميع تواليفه في أصول الفقه، منها كتاب "شرح البرهان" لأبي المعالي الجويني المتوفى عام 478 هـ / 1085 م، وبعد هذا الكتاب من أهم كتب الأصول 2). أما شرح هذا الكتاب بعنوان "البيان لشرح البرهان" فقد أجازه هذا الكتاب أبو عبد الله محمد ابن المسلم بن محمد بن أبي بكر الفرشي المخزومي الصفلي مستوطن مصر، كما أجازه غير ذلك من الكتب 3).

كما حدث الفقيه عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى الزهرى المتوفى عام 1135 هـ / 530 م عياضا بكتابه للفقه أبي الوهاب الباجي المتوفى عام 474 هـ / 1081 م تحت "الفصول في أحكام الأصول"، والكتاب الآخر هو التسديد إلى معرفة طرق التوحيد 4). ويذكر عياض أن أصول الباجي موجودة لديه 4). كما أطلع عياض في قروطبة على كتاب "سائع البرهان" تأليف ابن عبد الملك الفقيه، إجازة من الشيخ الكاتب أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن طريف بن سعد المتوفى عام 1136 هـ / 530 م 5).

1) عياض: مصدر سابق، ص 64.
2) المصدر السابق، ص 65، المرجع: أزهر النجاح، ج 3، ص 166، 165.
3) عياض: مصدر سابق، ص 88.
4) المصدر السابق، ص 184.
5) المصدر السابق، ص 109.
وسعم عياض كتاب "الفقه والمتفقه" من مؤلفه أبي عبد الله محمد بن عمر بن قطري الزيدي الامسيبي (1) مستوطن سبئة وها توفي عام 501 هـ / 611 م. أما الإمام أبو بكر الشرطوسي مستوطن الإسكندرية والمتوفى عام 520 هـ / 1126 م، فقد أجاز عياضًا جميع مؤلفاته، منها كتاب في أصول الفقه (3).

كما سعم عياض العديد من كتب الأصول منها كتاب "أصول الفصول" تأليف على بن أحمد الواحدي، سمعه على الشيخ أبي نصر سهل بن عثمان النيسابوري المتوفى عام 531 هـ / 1136 م (4). وسمع أيضًا كتاب "الإشراف على ما في أصول الفراعين من الاختلاف" لأبي عمرو بن عبد البر، على الفقيه سفيان بن العاصي بن أحمد الأدبي البناني المتوفى عام 520 هـ / 1126 م (5).

(د) كتب الفقه:

ارتفعت منزلة القاضي عياض في مجال الفقه، فقد عرف عنه العمق وحسن التعリアル، والقدرة على الترجيح، والقدرة على الاستنباط، حتى يكين القول، بأنه آخر من يعتد بشغافه الفقهية في المغرب الإسلامي، إذ قال أن تجد كتابا من كتب الفقه والتوازول ألف بعده خلا من ذكر آرائه، ولذلك نجاد اسمه يتردد ويكثرة في المضات الفقهية التي ألفت بعده (6).

لقد أدت دراسات عياض للفقه الماليكى دراسة واعية متقدبة في أن يكون علمنا من أعلام الذهب. وتعت "المدونة" التي ألفها سننون بن سعيد

(1) المصدر السابق، ص 79، 77.
(2) ابن يشكول : مصدر سابق، ج 2، ص 587.
(3) عياض : مصدر سابق، ص 63.
(4) المصدر السابق، ص 70.
(5) المصدر السابق، ص 70.
(6) عمر الجديدي : أثر عياض في فقه العوليات، ندوة الإمام مالك، مراكش 1981، ج 1، ص 90.
(160 ـ 340 هـ / 777 ـ 853 م) الأهم في كتاب الفقه التي درسها
عياض، وقد أقنعها حتى إنه كان ينظر شيوخه فيها، فعند حدث عياض عن
شيخه الفقيه أبي عبد الله محمد التميمي السبتي المتوفى عام 505 هـ / 1111
م تقول: "لقد لازمنه كثيراً للمناظرة في المدونة" ويقول أيضاً: "قرأت عليه
ال كثير منها رواية وضبطاً وأجازني بقائها" بالسند المتصل حتى سحنون(1).

وقرأ عياض أكثر المدونة، وسمع بقيتها على الفقيه محمد بن عتاب بالسند
المتصل أيضاً حتى سحنون. كما راجع نسخه المدونة التي كانت يحوزته بأصل
ابن عتاب، المروءة على ابن وضح، والأخر بريو المدونة عن مؤلفها سحنون(2).

كما ناظر عياض في المدونة عدا من الفقهاء منهم القاضي الشهير محمد
ابن عبد الله بن محمد الأوومي المتوفى عام 517 هـ / 1122 م، والفقهاء
القاضي إبراهيم بن أحمد البصري المتوفى عام 516 هـ / 1121 م(3).

والتفقيه عياض بعض الفقهاء الذين أجازوه المدونة وناظرهم فيها، منهم
الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله الخشني المتوفى عام 536 هـ / 1141
م(4)، والذي كان حافظاً للفقه على مذهب الإمام مالك، وبعد، يشير فقهاؤه وقته(5)
ومنهم أيضاً القاضي عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم اللحسي المتوفى عام
513 هـ / 1119 م(6).

ومن أجل كتب الفقه المالكي التي استفاد منها عياض كتاب "الرسالة"
لأبي محمد بن أبي زيد القيرواني المتوفى عام 386 هـ / 996 م فقد قرأ هذا

(1) عياض: مصدر سابق، ص 42، ص 27.
(2) المصدر السابق، ص 42، ص 41.
(3) المصدر السابق، ص 58، ص 124.
(4) المصدر السابق، ص 154.
(5) ابن بشكوال: مصدر سابق، ج 1، ص 294، ص 295.
(6) ابن الأبار: المجمع، ص 111، ص 310.
كتاب على الفقيه السيتي محمد بن عيسى بن حسن المتميز، بالسند المتصل حتى المؤلف(1). كما قرأ جميعها على الخطب أبى القاسم خلف بن إبراهيم المتوفي عام 511 هـ/ 1119 م في مجلس واحد في داره بقرطبة(2). وقرأها أيضاً وسمعها على الفقيه أبى إسحاق بن الفاسى المتوفي عام 512 هـ / 1119 م بالسند المتصل حتى المؤلف(3).

وتتعدد كتب الفقه التي درسها عياض منها أيضاً كتب "اختصار الكتب المحسّنة" تأليف الفقيه أبى الوليد بن رشد المتوفي عام 520 هـ / 1126 م وقد سمع عياض هذا الكتاب يقرأ على المؤلف الذي أجازه روايته(4). وقرأ عياض أيضاً كتاب "تلقيح المبتديئ في الفروع" لأبى محمد عبد الوهاب بن نصر المتوفي عام 472 هـ / 1080 م بالسند المتصل حتى المؤلف، على القاضى أبى على الصدفى، ويقول عياض عن هذا الكتاب: "ليس للمالكيّة كتब مثله"(5). وهناك أيضاً كتاب بعنوان "الرسالة" تأليف القاضي أبى بكر بن الطيب. وقد أطلع عياض على هذا الكتاب قراءة ومناظرة وتفقه فيه على القاضي الخطيب أبى القاسم بن محمد المعافري السبتي المتوفي عام 502 هـ / 1108 م(6).

وهناك بعض المؤلفات الفقهية الأخرى التي قرأها عياض، منها كتب "مسألة الإيمان اللازمة" لمؤلفها القاضي أبى بكر بن العربي المتوفي عام 543 هـ / 1149 م(7)، وكتاب "النصائح" تأليف الفقيه إسحاق بن إبراهيم(8).

(1) عياض: مصدر سابق، ص 44.
(2) المصدر السابق، ص 47، 148.
(3) المصدر السابق، ص 12.
(4) عياض: مصدر سابق، ص 54، 55، المقر: أزهر، ج 4، ص 59 - 60.
(6) عياض: مصدر سابق، ص 199.
(7) المصدر السابق، ص 69.
(8) المصدر السابق، ص 100.
كما أجازه الإمام أبو بكر الطرطوشي المتوفى عام 520 هـ / 1126 م رواياته وتصانيفه الفقهية، منها كتاب "البدع والمحدثات"، وكتاب "بر الوالدين" و"رسالة في تحرير الغناء" وغير ذلك (1).

(2) كتب السيرة النبوية:
أطلع عباض على أهم كتب السيرة النبوية وهو كتاب "سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم" لأبي محمد عبد الملك بن هشام المتوفى عام 208 هـ / 834 م. لقد قرأ عباض هذا الكتاب بقرطبة، بالسند المتصال حتى المؤلف على أبي بكر، سفيان بن العاصي بن أحمد الأسدى المتوفى عام 520 هـ / 1126 م وقارن عباض نسخته من هذا الكتاب بنسخة أبي بكر. وقد حدث عباضا بهذا الكتاب الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى سماعاً للكثير منه وإجازه لما فاته (1).

2- علم الكلام:
لم يكن عباض أصولياً فقيهاً حافظاً لمسائل المختصر والمدونة قائماً عليها فقط فقد كان أيضاً متكلماً (2). ولذلك صحب عباض المتكلم عبد الغالب بن يوسف السالمي المتوفى عام 519 هـ / 1122 م أثناء إقامته في سبسطة. وبعد هذا المتكلم من رواد علم الكلام على مذهب أهل السنة من الأشعرية، وقد استفاد منه عباض كثيراً إذ يذكر أنه ناوحا كثيراً من مجموعاته (3).

أما يوسف بن موسي الكليبي المتكلم، أبو الحجاج الضرير، فقد كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية. حتى قال عنه عباض إنه (4).

---
(1) مصدر سابق، ص 62.
(2) عباض: مصدر سابق، ص 206.
(3) محمد بن عياش: التعرف، ص 4.
(4) عياش: مصدر سابق، ص 169، 170.
آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب وقد سكن هذا المتكلم سبعة وقرأ عليه عياض أرجوزته الصغرى التي ألفها في الاعتقادات، كما حدثه بالكبرى وأجازه الصغرى والكبري(١).

وأخيرا قرأ عياض كتاب "الفراق" للقاضي أبو الوليد الباجي، مناولة من أبي عبد الله محمد بن مفرج بن محمد بن سليمان الضحاكي المتوفى عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م(٢) وإذا كان عياض متكلماً كما قال ابنه محمد، فقد كان ذلك على مذهب الأشاعرة يشهد على ذلك أن القاضي عياض في كتابه "الشفا" يتعتبر حقوق المصطفى جذوراً whereby أشياء كما ذكرت، وقوله إنه إمام أهل التحقيق(٣) وفي هذا الكتاب أيضاً يذكر آراء كبار الأشاعرة مثل أبي بكر الباقلاني(٤) وأبي المعلوي الجنوبي إمام الحرمين(٥) ويقول عنهما أنهما من أئمنا (٦) ويدل هذا الكلام على صلته الوثيقة بمذهب الأشاعرة وقراءته لمؤلفاتهم في الاعتقاد (٧)، وعلى أنه أشاعر المذهب.

٣- التصروف الإسلامي:

يعد كتاب "الرعاية لحقوق الله و القيام بها" للمطابع وهو المذكور بن أسد البصري المتوفى عام ٢٤٣ هـ / ٧٥٩ م الأهم في كتب التصروف الإسلامي. وقد حصل عياض على إجازة برواية هذا الكتاب من الشيخ الصوفي محمد بن خميس الذي يعد من أهل غرب الأندلس والذي عرف بالتفطير والصلاح.

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٦.
(٣) عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٢٧٧.
(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٧.
(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٧.
(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٧.
(٧) عياض: الغنية، ص ٦٥، ص ٨٨. 

٦١
وقد جالس عياض كثيراً وسمع منه أيضاً كتابه الذي ألفه في التصوف بعنوان "المنتقي من كلام أهل التقوى" (1).

4 - اللغة العربية وعلومها:

درس القاضي عياض العديد من نفائس التراث العربي الإسلامي في مجال اللغة العربية وعلومها، حتى أصبح كما قال ابن فرحون "عاماً بال نحو واللغة وكلام العرب" (2) وامتدت حضبى به قوله "كان أديباً" (3). ويدين عياض بثقافته اللغوية المنوعة لعدد من أعلام النحو والأدب الذين التقى ببعضهم في مستقط رأسه في مدينة سبطة، والتقى بالبعض الآخر في بلاد الأندلس.

أما في مدينة سبطة فقد التقى عياض بالعالم النحوي الحسن بن على بن طريف المتوحش عام 508 ه/ 111 م وقال عنه "شيخ بلدنا في النحو". فقد قام هذا النحوي بتدريس النحو في سبطة وأخذ عنه الكثير منهم القاضي عياض (4) الذي درس عليه كثيراً من كتب اللغة العربية، فقام النحوي قرأ كتب "المجل" لأبي القاسم إسحاق الزجاجي (523 - 415 ه/ 923 - 934 م) وكتاب "الواضح" للزبيدي وكتاب "الكافي في النحو" لأبي جعفر ابن محمد النحاس النحوي المتوفى عام 378 ه/ 989 م، وكتاب "الإيضاح" تأليف إبراهيم بن على الفارسي الذي كان حياً خلال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري (5). قرأ عياض على هذا العالم بعض الكتب في مجال اللغة، منها كتاب "فصيح الكلام"، وهو أحمد بن يحيى بن...
زيد الشيباني المتوفى عام 291 هـ / 903 م، وكتاب "أمانة القالي في اللغة" لأبي على إسماعيل بن القاسم اللغوي المتوفى عام 356 هـ / 961 م (1).

ورقاً عياض أيضاً بعض كتب الأدب، منها كتاب "أدب الكاتب" لابن قتيبة المتوفى عام 270 هـ / 883 م، وكتاب "المقتضب" للمبرد وهو محمد بن مزيد الأردي المتوفى عام 285 هـ / 898 م وسمع لنفس هذا المؤلف كثيراً من كتاب "الكامل في الأدب واللغة" (2) وقد قرأ عياض هذا الكتاب الأخير على الأديب أبى بكر محمد بن عبد الله بن البراء الجزيري المتوفى عام 500 هـ / 11 م (3).

ومن أعمال النحو والأدب في سبئية يوسف بن موسى الكلب المتكلم النحوي المتوفى عام 520 هـ / 1126 م الذي كان من أهل النحو (4). وقد أخذ عنه عياض كتاب "فقه اللغة وسر العربية" لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري المتوفى عام 430 هـ / 1038 م بالسند المتصل حتى المؤلف (5).

وجالس عياض في بلده الأستاذ الأدب النحوي أبى الحسين يحيى بن محمد المعروف بابن الطراوة الذي يعد أحد أئمة الأدب والنحو، والذي كان مهتماً بكتابه سبيسه، كما كان شاعراً ولذلك حضر عياض مجالسه في الأدب وسمع الكثير من شعره (6).

بعد أن درس عياض في سبئية العديد من كتب اللغة العربية، ذهب إلى الأندلس للتأكد من سلامة المادرة المروية والبحث عن أصولها ووصل أسانيدها.

(1) المصدر السابق، ص 142.
(2) المصدر السابق، ص 142، 143.
(3) المصدر السابق، ص 56.
(4) ابن بشكاول: الصلاة، ج 2، ص 682.
(5) عياض: مصدر سابق، ص 226.
(6) المصدر السابق، ص 223، السيوطي: يغبة الوعاة، ج 2، ص 141.
بأصحابها، وقراءة كتب جديدة في هذا المجال. فعياض قرأ في سبعة كتب كاملة للمؤرخ على رأس من شيوخه، وحين رحل إلى قرطبة والتقى بالأديب الراوي محمد بن سليمان النفري المعروف بابن أخت غانم والمتحف عام 565 هـ.

130 م. قرأ عليه نفس هذا الكتاب بالسند المتصل حتى المؤلفون.

وفي رحلته إلى الأندلس قرأ عياض على هذا الأديب عددًا من المؤلفات لم يقرأها في سبعة، منها كتاب "إصلاح المنطق" للأديب بعقوب بن إسحاق الشهير بابن السكين المتوفى عام 144 هـ/858م وهو من الكتب المختصرة في الأدب، كما سمع منه كتاب "الألفاظ" لهذا المؤلف أيضاً. وقرأ أيضاً كتاب "الزاهر في مفاهيم الكلام الذي يستعمله الناس" لأبي بكر محمد الأبواري النحوى المتوفى عام 268 هـ/939م بالسند المتصل حتى المؤلف.

وقرأ كتاب "مختصر العين" لأبي بكر الزبيدي، وأخيراً قرأ كتاب "الحماسة" لأبي النفوذ ثابت بن محمد الجرجاني.

كما سمع عياض في قرطبة كتابي "شرح الجمل" و"شرح المقدمة" من تأليف ابن باب بشأن، على الخطيب أبو القاسم خلف بن إبراهيم خلف بن سعيد المتوفى عام 511 هـ/1117م (3) وفي نفس المدينة سمع أيضاً كتاب "الفصول في اللغات والأخبار" لأبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي المتوفى عام 417 هـ/1025م على الفقه القرطبي محمد بن عتاب.

كما التقى عياض في قرطبة بالأديب النحوى الأستاذ علي بن أحمد بن خلف الأنصاري المتوفى عام 528 هـ/1133م والذي يعد أوحد زمانه إتقاناً ومعرفة.

---
(1) عياض: مصدر سابق، ص 59.
(2) المصدر السابق، ص 61.
(3) المصدر السابق، ص 148.
(4) المصدر السابق، ص 163.
وتفرداً بعلم العربية (1) وقد قرأ عليه عياض كتابين: الأول كتاب « أدب الكاتب » لأبي محمد بن قتيبة، وراجع عياض نسخته من هذا الكتاب بكتاب هذا العالم، وكتاب الثاني هو « فصيح الكلام » لعلي (2).
وفي مدينة إشبيلية التقى بالأستاذ النفوي على بن عبد الرحمن محمد التنوخي المتوفى عام 514 هـ / 1120 م والذي يعد من أهل المعرفة باللغة والأدب حافظاً لهما (3). ولذلك قرأ عليه عياض بعض المؤلفات الشعرية مثل كتاب « شرح الأشعار السنية »، وكتاب « شرح الحماسة »، وكتاب « شرح شعر حبيب » لأبي الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم (4).
كما أن شيخ الأدباء عالم النحو واللغات والشعر والبلاغة أبو محمد عبد الله ابن محمد بن السيد النحوي البزليوسي الذي سكن بلنسية وبها توفي عام 511 هـ / 1127 م أجازه مصنفاته منها « شرح أدب الكاتب » و« شعر المعرى » (5).
ومن كتب الأدب التي سمعها عياض كتاب « أدب الصحبة »، سمعه من أبي على الحسين الصدفي بالسند المتصل حتى المؤلف عبد الرحمن بن محمد بن الحسين السلمي الشيباني المتوفى عام 412 هـ / 1021 م (6).
وعلى أية حال لقد استوعب عياض بن موسي العديد من كتب اللغة والنحو والأدب التي قرأها على أساتذته في هذا المجال. وقد أفادته هذه الدراسة فيما ترجمه من تراث علمي آخر.

(1) السيدوسي: تغيير الوعي، ص 2، ص 162.
(2) عياض: مصدر سابق، ص 175، ص 245.
(3) ابن بشكوال: الفصلة، ج 2، ص 174.
(4) عياض: مصدر سابق، ص 177، السيدوسي: مصدر سابق، ج 2، ص 174.
(5) عياض: مصدر سابق، ص 158، ابن بشكوال: مصدر سابق، ج 1، ص 392.
(6) عياض: مصدر سابق، ص 134.
5 - كتب الطبقات والتراجم:

يعود كتاب "الصحابية" لأبي عمر بن عبد البر من أهم الكتب التي تناولت سيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أجاز عياض هذا الكتاب الفقيه الراوي أبو عمران موسى بن عبد الرحمن الشاطبي المتوفى عام 517 هـ / 1123 م حين التقى به في مدينة سبتا (1).

كما حصل عياض أثناء رحلته إلى شرق الأندلس على إجازة لكتابين مؤلفين على كتاب الصحبة لأبي عمر بن عبد البر، وهي كتاب "التنبيه على الاستيعاب" وكتاب "الذيل" للفقيه محمد بن خلف بن سليمان بن خلف بن محمد بن فتحون الأرثي المتوفي عام 516 هـ / 1122 م (2).

أما كتاب "طبقات القراء" لأبي عمر الداني فيذكر عياض أن الخطيب أبو القاسم خلف بن إبراهيم المعروف بابن النحاس المتوفي عام 517 هـ / 1123 م ناوله هذا الكتاب أي قراء عليه بالسند المتصل حتى المؤلف (3). وأخيراً سمع عياض كتاب «طبقات علماء الأندلس» للقاضي أبي الوليد الفرعي بالسند المتصل حتى المؤلف من القاضي ابن عتاب الجذامي المتوفي عام 520 هـ / 1126 م (4).

وعلى ذلك فإن القاضي عياض يدين فيما وصل إليه من مكانته علمية مرفقة إلى شيوخه وأساتذته الذين عشوا به عناية كبيرة، وقرأ عليهم أهمات كتب التراث العربي الإسلامي في كافة فنون العلم والمعرفة، وكان لكل ذلك أكبر الأثر في تكوينه العلمي. ساعد على ذلك استعدادات الشخصي الذي أعاده على استيعاب هذا الكم من العلوم والإحاطة بكلياتها فقد "نشأ مجدد الأحوال والأفعال، طالباً للعلم حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظماً عند الأشباخ من أهل العلم، كبير المجاسة لهم" (5).

(1) المصدر السابق، ص 195.
(2) المصدر السابق، ص 81، ابن الأبار: المجمع، ص 115.
(3) عياض: مصدر سابق، ص 147، ص 148.
(4) المصدر السابق، ص 132.
(5) محمد بن عياض: مصدر سابق، ص 4.
الخاتمة

يمكننا بعد هذه الدراسة عن القاضي عياض التي تناولت النشأة والتكوين العلمي ، أن نختصر إلى النتائج التالية :

وأوضح هذه الدراسة أن القاضي عياض بن موسى المولود في منتصف شعبان عام 476 ه / 1081 م ، عربى الأصل ، سبتي الدار والميلاد ، سكن أجداده في القيروان ثم الأندلس وفاس قبل استقرارهم النهائي في مدينة سبتة . وقد تم تحديد عام 388 ه / 998 م تقريباً بداية هذا الاستقرار حين وفد جد أبيه عمرو إلى هذه المدينة .

كما بينت الدراسة أن عياض قد عاش فترة الحكم المرابطي لمدينته وشاهد في صيام جيوهم تنطلق منها إلى الأندلس لإخضاع شوكة نصارى الأسبان ، ثم القضاء على ملك الطوائف. وذل ذلك نجح المرابطون في تحقيق وحدة العدوتين المغربية والأندلسية ، وقضوا على التمزق السياسي فضم الأمن والاستقرار في هذه البلاد كلها . وقد تركت هذه الصور التي شاهدها عياض وعاشها بصماتها في نفسه بلا شك كما أن الاستقرار الذي نعمت به مدينته قد شجع على تدفق العلماء الذين قدموا إليها من مدن المغرب والأندلس والشرق الإسلامي .

كما أبرزت دراسة مجتمع سبتية الذي أنتج عياض دور الموقع الجغرافي للمدينة وهو دور أعمى في أن تكون سبتية قاعدة من قرائد المغرب الإسلامي في ميدان العلم والثقافة ، ومركزاً لاستقبال والبقاء العلماء الذين جالسهم عياض واستفاد منهم .

كما كانت هذه المدينة عاملة بالسكان والعلماء ، وتفتق الباحث مع البكري في سكنى العنصر العربي للمدينة ، لكنه لم يتفق معه في أن قبيلة صدف هي العنصر العربي الوحيد ، لأن الشواهد المستمدة من فهرس شيوخ القاضي عياض تؤكد تعدد العناصر العربية التي سكنت سبتية وتنسب إلى خم وحصب والأزرد ومعافر وقيم وفقيش .

- 67 -
كما أكدت دراسة النشاط الاقتصادي لرصد أن المدينة نعمت بإمكانات اقتصادية كبيرة. فال مدينة عرفت نشاط زراعي لا يأس به بالإضافة إلى ازدهار حركة الصيد البحري، والنشاط التجاري الذي ازدهر بحكم موقع المدينة البحري الذي بذله ببداية من المراس البحري، فنشأت تجارة الصادر والوارد. وجدير بالذكر أن السياسة المالية للدولة المراقبة في ميدان الجباية قد أعنت على ازدهار النشاط الاقتصادي. وقد جذب هذا الازدهار العلماء إلى المدينة، كما جذب بعض التجار الذين وجدوا إليها من كانوا حاملين للعلم، ولذلك جلسهم عياض وأخذ عنهم.

وقد حدثت التنازلة وراء عدد من المصادر أسهمت في التكوين العلمي للقاضي عياض، المصدر الأول مدينته سبتيته التي كانت في ذلك الوقت مركز إشعاع فكري، وحضاري يفضل علمائها ومن وفد إليها من علماء الأندلس والمغرب والشرق. والمصدر الثاني هو الأندلس الذي رحل إليه وهو معلم يعلم عصره وكان الهدف من هذه الرحلة هو التأكد من صحة الكتب التي قرأها أو سمعها والبحث عن أصولها وأسئلتها. والتقني عياض في رحلته تلك بعلماء قرطبة، ويشتاقه وغرناطة ورسالة ترجمة وشاطبة والمرية ولورقة واريوله. أما المصدر الثالث لثقافته فهو المشير الإسلامي رغم أنه لم يرحل إليه لكنه نهل من ثقافته من خلال من وفد إلى سبتيته من علمائه، أو من كتب يجيده من المشارقة روائياتهم.

وينتخبة لذلك تنوعت طرق التحصيل العلمي للقاضي عياض، فيذكر عن شيوخه أن هناك من جالسهم وقرأ عليهم بقراءته، أو سمع منهم بقراءة غيره، ويشير في أحيان كثيرة أنه قرأ أو سمع بالسند المفصل حتى المؤلف، وهذا يوضح حرص عياض على الأسانياد المتصلة وسحبتها. أحيانا يستخدم جملة ناولى كتاب كذا، والقصص بالقراءة بالسند المتصل، وهناك من جالسهم وسألهم في مسائل العلم، وهناك من صحبه كثيرا ودرس عليه، وأخيرا يذكر أن هناك من كتب عنه نوائد، وهناك من كتب له من شيوخه بخطواتهم نوائد.
وقد أوضحنا الدراسة الالتباس التي درسها القاضي عياض وأسهمت في تكوينه العلمي، وكان أولها القرآن الكريم وعلومه. فقد كان حافظاً لكتاب الله تعالى، قارناً لكتاب القراءات والتفسير وعلم الناسخ والمنسوخ حتى أصبح كما قال ابنه محمد: «كان عارفاً بجميع أنواع علومه».

أما علم الحديث فقد حرص عياض على ملازمته الحديثين والحفاظ لكتبه، ومقابلة أصوله بأصولهم. وحرص أيضاً على دراسة علم الحديث دراية، فدرس لذلك كتب الصحاح صحيح البخاري ومسلم وكتب السنن كسن أبي داود، وسن النسائي، وكتب الجوامع كجامع الترمذي وجامع عبد الله بن وهب، وموطأ الإمام مالك، وما كتب عنه. بالإضافة إلى كتب بعضهم الأربعين حديثاً وكتب غريب الحديث وغير ذلك من الكتب التي أعنته على دراسة علم الحديث دراية. كما درس كتب الحديث التي اهتمت بالرواية واتصال الأسانيد، حتى أصبح أحفص رجال عصره وأعلمهم بعلم الحديث دراية ورواية.

كما أبرزت الدراسة اهتمام القاضي عياض بدراسة الفقه وأصوله وتم ذكر الكتب التي أطلع عليها حتى أصبح فقيهاً أصولياً بصيراً بالفتيات والأحكام والندوازل. وأبرزت الدراسة أيضاً فقيهاً عياض بدراسة علم الكلام على مذهب الأشعري، بالإضافة إلى دراسة السيرة النبوية، وكتب التصوف، وكتب الطبقات والتراجم.

أخيراً إذا بينت الدراسة اهتمام القاضي عياض بالإسلام بكل ما كتب عن القرآن الكريم وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، فإن هذا الاهتمام لم يشتهي عن دراسة اللغة العربية وعلومها، وعن الترجم على شروح النحو والأدباء الذين ذاع صيته في الأندلس والمغرب لحضور حلقاتهم والأخذ عنهم. كما حددت الدراسة المصادر النحوية واللغوية والأدبية التي استقى منها عياض معارفه في علوم اللغة العربية حتى قال مترجمه إنه كان عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب، شاعراً مجيداً أبيداً، خطوباً بلغياً.

- ٦٩ -
قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية المطبوعة:
ابن الجزري: (أبو الوليد الناصري) المحيي فيخبر، طبعة تونس 1961 م.
- التكملة لكتاب الصلوة، تحقيق السيد عزت إبراهيم، مكتبة الخليفة، القاهرة 1979 م.
- المعجم في أصحاب القاضي أبي على الصدف، تحقيق إبراهيم شربور، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الأولى 1989 م.
- ابن أبي زرع: (أبو الحسن علي بن عبد الله كان جحا عام 1726 هـ / 1326 م).
- الأدبيات وبروض القرطاس في أحيان ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عادل الوعود، دار البابا منصور، المطبعة الملكية، الرياض، الطبعة الثانية 1996 م.
- أحمد بابا: (أحمد بابا بن عمر أقيت التنبكي) التوقيف 1301 هـ / 1889 م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الفراغي، مكتبة الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى 1989 م.
- الإدربيس: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم المتنبي) عام 558 هـ / 1162 م.
- رضوان المنشاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.
- ابن بُشْكَوْكَل (أبو القاسم خلف بن عبد الملك المنطي) عام 578 هـ / 1182 م.
- الصلبة في تاريخ أمة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1966 م.
- البكري: (أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري المتنبي) عام 877 هـ / 964 م.
- المسالك والمالك، تحقيق أديب، فان ليفون، وآدريان فيير، الدار العربية للكتاب، تونس 1996 م.
- ابن الجزري: (أبو الحسن علي بن محمد الجزري المتنبي) عام 1330 هـ / 192 م.
- غاية النهاية في طبقات القراء، عن بشر جرج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة 1982 م.
- حاجي خليفة: (مصطفى بن عبد الله الرومي الخنفي المتنبي) عام 1657 هـ / 1992 م.
- كشف الظن من اسماء الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت 1992 م.
- الجامع: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله المتنبي) عام 376 هـ / 1421 م. 70 -
الروض المطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت،
الطبعة الثانية 1980 م.

ابن حافين: (الفتنة بن محمد بن عبد الله الإشبيلي المتوفى عام 69/124 م).

قالاذ العقاب ومجلس الأعيان، تحقيق حسن يوسف، مكتبة النوار، عمان، الطبعة الأولى
1989 م.

ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد المتوفى عام 808 هـ/139 م).

العبرومية المبتداً والأخير، مؤسسة الأعلى للطبوعات، بيروت 1971 م.

ابن خلابان: (أحمد بن محمد بن أبي بكر المتوفى عام 81 هـ/674 م).

وفيته الأعيان وأبناء الأزيد، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1978 م.

الداودي: (الحافظ محمد بن علي بن أحمد المتوفى عام 878 هـ/1474 م).

بطاقة المخزنين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2002 م.

الذهبي: (محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى عام 778 هـ/1376 م).

سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنب وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت 1996 م.

ابن سعد: (علي بن موسى بن سعيد المتوفى عام 685 هـ/1286 م).

كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العريري، منشورات المكتب التجاري للطباعة، بيروت،
الطبعة الأولى 1970 م.

السيوطى: (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن المتوفى عام 911 هـ/1505 م).

يغية الوحيدة في طبعتين للغويدي والناحية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة
العصرية، بيروت، الطبعة الأولى 1964 م.

المنصيري: (صلاح الدين خليل بن أبيك المتوفى عام 764 هـ/1365 م).

الوافي بالوفيات، طبعة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، نشر فرانز شتاينر،
فيسبن، ج2، استانبول 1949 م.

الضبعي: (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عمراء المتوفى عام 599 هـ/125 م).

يغية المنشب في تاريخ أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967 م.

عبد الحق الباجي، (عبد الحق بن إسماعيل بن أحمد الغزالي كان حيا عام 1322 هـ).

71 -
المقدمة: الشريف والمتنبي، اللذان في التعريف بصلحا الريف، تحقيق سعيد إبراهيم، الطبعة الملكية، بيروت، الطبعة الثانية 1992 م.

عبد الواحد المراكشي، (عبد الواحد بن على التونسي عام 647 هـ/1249 م).

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العربان، القاهرة 1963 م.

ابن عذاري، (محمد بن عذاري المراكشي توفي نهاية القرن 7 هـ/13 م).

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفينسال، القاهرة العربية للكتاب، بيروت، الطبعة الثالثة 1983 م.

العماد الحنفي: أبو الفلاح عبد الحكيم بن أحمد التونسي 891 هـ/1481 م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، 1966 م.

عياض، (القاضي: أبو الفضل عياض بن موسى التونسي عام 544 هـ/1149 م).

الغنية، (قهري ششوغ القاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرار، الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1883 م.

ترتيب المدارك وتكرير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد ابن تاويت، الطنجي، وزارة الأوقاف المغربية، الرباط، الطبعة الثانية 1983 م.

ترجم أغلبية مستخرج من مدارك القاضي عياض، تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1968 م.

الشنا، بتعريف حقوق المصنف، (دار الكتب العلمية، بيروت) بدون تاريخ.

عياض وولده محمد، (مماحب الاحكام في نوازير الأحكام، تحقيق محمد بن شريف، الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1990 م).

ابن عياض (محمد بن عياض بن موسى التونسي عام 575 هـ/1179 م).

التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريف، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، الطبعة الثانية 1982 م.

ابن فرحون (إبراهيم بن نور الدين المراكشي التونسي 799 هـ/1411 م).

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة 1972 م.
ابن القاضي (أحمد بن القاضي المكسي) 965 هـ/1562-1627 م:
- جزيرة الاقتباس في ذكر من حل من الأعمال مدينة فاس ، دار النصور للطباعة ، الرباط 1974 م.
- القطنى (أبو الحسن على بن يوسف المتوفى عام 642 هـ / 1246 م).
- ابناء الرواة على أنباء النجاة ، تحقيق محمد أبو الغضب إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة 1957 م.
- مجهول : (توفي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي).
- الاستبصار في عجائب الأمصان ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشروق الثقافية العامة ، بغداد 1986 م.

مجهول :
- الخليل الوعيشة في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وآخرين ، دار الشروق الحديثة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى 1979 م.

مجهول :
- سلسلة تاريخية من أخبار الريس في الأميزج المطاوعي ، منتخبة من المجموع المسمي بكتاب مفاخر الرياس ، نشر ليلى بروفانسال ، الرباط 1934 م.
- المقرني (أحمد بن خالد الطالباني المتوفى عام 1341 هـ / 1922 م).
- أزهار الرياس في أخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى السفاح وآخرين ، الرباط 1978.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الوطيب ، تحقيق أحسان عباس ، دار صادر ، بروت 1988 م.
- الناصري (أحمد بن خالد السلاواني المتوفى عام 1315 هـ / 1897 م).
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تعليل وتحقيق ولد المولف جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1997.
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر المتوفى عام 1384 هـ / 1967 م).
- كتاب البلدان ، النجف ، الطبعة الثانية 1957 م.
ثانيا المراجع العربية والمغربية:

إبراهيم حركات:
- المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1984.

أحمد مختار العبادي (دكتور):
- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، Madrid، مجلد 5، العدد 2، مدريد، 1957.

إدريس أحمد خليفة:
- التاريخ المغربي لمدينة سبتم، مكتبة الأمنية، تطوان، 1988.

آخيل جنشالي بالنشيا:
- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤس، القاهرة الطبعة الأولى، 1995.

أنور الرفاعي:
- الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، 1986.

بروفيسور، ليلى:
- تاريخ أسسنا الإسلامية، ترجمة علي عبد الرؤف وآخرين، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

جاك كاتب:
- مدينة سبتمة في أواسط القرن الخامس الهجري من خلال كتاب المسالك والممالك للبهخري، مجلة البحث العلمي، العدد 19، الرياض، يونيو 1972.

الحبيب الجنجاني:
- دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.

حسن أحمد محمود (دكتور):
- قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957.

حسن سيد عبد الله مراد (دكتور):
- 74.
العرب في مدينة القيروان ودورهم الثقافي حتى نهاية عصر الولاة، مجلة بحوث في الدراسات الأفريقية، العدد 43، القاهرة 1995.

حسين مؤنس (دكتور):
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الشروخ، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997.
- دولة بنى حمود في مالقة بالأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1976.
- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور):
- تاريخ المغرب العربي، الجزء الرابع، المراقب، منشأة المعارف، الاسكندرية، الطبعة الأولى، 1995.
- السيد عبد العزيز سالم (دكتور):
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، بدون تاريخ.
- عبد العزيز فيلالي (دكتور):
- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1983.
- عبد الله العروي:
- مجمل تاريخ المغرب، المركز العربي للثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994.
- عمر الجيدى (دكتور):
- أثر القاضي عياض في فقه العمليات، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض، مراكش، 1981.
- الكثانى، محمد بن جعفر:
- الرسالة المستمرة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الرابعة، 1986.
- محمد بن تاويت:
- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، الجزء الأول، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1998.
- تاريخ سبأة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1982.

محمد زهير:
- محور فاس سبأة وأهميته في العصور الوسطى، بحث منشور في ندوة المدينة في تاريخ المغرب، الدار البيضاء 1988.

محمود على مكي (دكتور):
- التشريع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 2، العدد 1، مدريد 1954.